جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

مِن جَمَالِيَّاتِ التّعَبِيرِ القُرآنِي عَن قُدْرَةِ اللهِ- جلَّ في علاه-

إعداد

د. أحمد محمد عبدالمجيد سعداوي
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
جامعة الأزهر بدسوق

(العدد الواحد والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠ أكتوبر)
(الجزء الأول (١٤٤٤هـ /٢٠٢٢م)

الترقيم الدولي للمجلة (2536- 9083(ISSN)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٦٢٧١/ ٢٠٢٢م

مِن جَمَالِيَّاتِ التّعَبِيرِ القُرآنِي عَن قُدْرَةِ اللهِ- جلَّ في عُلاه-

أحمد محمد عبدا لمجيد سعداوي

قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، دسوق، مصر.

البريد الإلكتروني:ahmedseadawy.2230@azhar.edu.eg

الملخص

تدور هذه الدراسة في آفاق الآيات القرآنية المعبرة عن قدرة الله–جل في علاه– وتحليلها تحليلا أدبيا يعلو بالنفس الإنسانية إلى سماء جمالياتها؛ لعله يخلق في القلوب النقية إيمانا صادقا يرسخ يقينها بقدرة الخالق وعظمته، وإعجاز القرآن وسموه. وقد تناولتْ هذه الدراسة قدرة الله في كتابه الكريم من خلال ثلاثة محاور، المحور الأول: يعتني بالآيات القرآنية المعبرة عن طلاقة قدرة الخالق على الإيجاد من العدم، ومظاهرها البديعة، وآثارها العظيمة، وأثرها على الإنسان إيمانا وجمالا. والثاني: يدور في فلك الآيات القرآنية التي تبرز مدى تمكن الخالق من تسيير ملكه الممتد وفق تقدير محكم يحافظ على استمرارية هذا الكون وإخراج صورته على الوجه الأكمل؛ لتتجلى أبعاد قدرة مالك الملك وسعة رحمته بعباده في تدبير كل أموره وتفصيل شتى آياته. والثالث: يغوص في أعماق الآيات القرآنية التي تتكئ على التصوير البديع والمثال البليغ؛ لبيان سعة علم الرحمن–جل في علاه– ومدى إحاطته بأحوال كل مخلوق في هذا الملكوت؛ وأثر ذلك في النفس الإنسانية؛ خاصة في إخلاص توكلها على الله. وقد خلصت تلك الدراسة إلى أن جماليات التعبير القرآني كبحر بلا شطآن مليء بالإعجازات والمعارف، يبحر فيه الباحث بقدر مهارته على الغوص في أعماق المعاني، وخبرته بدروب الألفاظ، وإحاطته بأبعاد التصوير، وحظه من شتى المعارف والعلوم؛ حتى يتلقف شيئا من أسرار هذا الجمال الذي يعزز إيماننا بوجود خالق عظيم القدرة لا يعجزه شيء، لكنّه واسع الرحمة والفضل.

الكلمات المفتاحية: جمال القرآن الكريم ، قدرة الله وعظمته، بلاغة القرآن الكريم، إعجاز القرآن الكريم، أسرار القرآن الكريم ، جماليات التعبير القرآني، من بيان القرآن.

Among the beauties of the Qur'anic expression of the power of God - the Exalted in His exaltation

Ahmed Mohamed Abdel Majid Saadawi

Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Al-Azhar University, Disuq, Egypt.

Email: *ahmedseadawy.2230@azhar.edu.eg*

Abstract

This study revolves around the horizons of the Qur'anic verses expressing the power of God - the Exalted in His exaltation - and its analysis in a literary analysis that raises the human soul to the sky of its aesthetics; Perhaps he creates in pure hearts a sincere faith that establishes their certainty in the Creator's ability and greatness, and the sublimity and eloquence of the Qur'an. This study dealt with the power of God in his Holy Book through three axes. The first axis: It takes care of the Qur'anic verses that explain to the addressee the versatility of the Creator's ability - the Most High - to exist from nothingness, and its wonderful manifestations, and its great effects, and its impact on man in terms of faith and beauty. The second: revolves around the Qur'anic verses that highlight the Creator's ability and the extent to which he is able to manage his extended kingdom according to a tight estimation that preserves the continuity of this universe and brings out its image in the fullest manner. To show the dimensions of the power of the owner of the king and the vastness of his mercy to his servants in the management of all his affairs and the detail of his various verses. The third: delves into the depths of the Qur'anic verses that rely on beautiful illustrations and eloquent examples. To show the breadth of the knowledge of the Most Gracious - the Exalted in His exaltation - and the extent to which He encompasses the conditions of every creature in this kingdom; And the impact of this on the human psyche; Especially in the sincerity of her trust in God. This study concluded that the aesthetics of Qur'anic expression is like a sea without shores full of secrets, miracles and knowledge. So that he may seize some of the secrets of this beauty, which strengthens our belief in the existence of a Creator of great power, who is not incapable of anything, but who is vast in mercy and grace.

Keywords *: The Beauty Of The Holy Quran,God's Power And Greatness ,The Eloquence Of The Holy Quran, The Miracle Of The Holy Quran , The Secrets Of The Holy Quran , The Aesthetics Of Quranic Expression , From The Statement Of The Quran.*

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان؛ والصلاة والسلام على من أُوتي جوامع الكلام؛ فأضحت اللغة العربية خير اللغات وأزهى الجنان.

وبعـــد

فما أجلّ كتاب الله الذي لا يدانيه جمال أو يضاهيه بيان؛ ولا عجب فيما يضفيه من نورٍ وعلو مقامٍ على كل عمل يتصل به، خاصة إذا كان يبحث في جماليات التعبير القرآني عن قدرة الخالق–جل في علاه–؛ حيث يجمع بين فيض الدلالة القرآنية ومتانة سبكها وبكارة صورها وعمق إيحاءاتها، وبين احتواء المخاطَب بالرد على تساؤلاته؛ التي قد تراود نفسه، وقد يشوبها الشك والريب–أحيانا–؛ فيستبدلهما بالإيمان اليقين؛ فما أجمل الإيمان حين يكون عن فهم واستيعاب؛ فيخلق في النفس جمالا يقوي إيمانها، لاسيما في زمن تحوطه الفتن من كل جانب؛ مما يمكن القول بأن هذا البحث هو مجموع أسئلة راودتني منذ صغري، وقد مهد الله طريقي لاستنبط إجاباتها من كتابه بنفسي؛ وإن كان جهلي بها سابقا نابعا من جهلي بلغتي، بعدما أصبحت غريبة بين أهلها الذين سارت وجْهتهم غربية؛ تاركين خير لغةٍ لخير كتابٍ أودع الخالق فيه كل ما يعين الإنسان على المعرفة والعلم والرقي والاستقامة؛ لذا قصدت أن يكون القرآن محور اهتمامي ودراستي؛ لعلي أجمع بين الجمال والإيمان، والعلم والعبادة، والفصاحة والبيان؛ وبالفعل قد نضج كل هذا عندي؛ بعدما نهلت قسطا من جمال الفيض القرآني عن قدرة الله، ودراسته تحت عنوان: **(من جماليات التعبير القرآني عن قدرة الله–جل في علاه–)**.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يتألف من مقدمة أوضحت فيها أهمية وقيمة هذا اللون من الأبحاث الأدبية، وسبب اختياري لهذا الموضوع، والمنهج الأدبي الذي اتبعته فيه، وتلا المقدمة تمهيد أوضحت فيه أبعاد الدلالة القرآنية وسمو بيانها، ومدى إمكانيات الباحثين في إصابتهم منها، وأتبعت ذلك بثلاثة مباحث رئيسة، جاء أولها بعنوان: من قدرة الله على الإيجاد من العدم، وثانيها: من قدرة الله على تسيير ملكه، وثالثها: من قدرة الله على العلم والإحاطة، ثم أعقبت ذلك كله بخاتمة عرضت فيها أهم النتائج والتوصيات، ووليها فهرس المصادر والمراجع.

واعتمدت في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي؛ لتميزه بالشمولية والتكاملية؛ حيث يجمع بين التحليل والتفسير، ثم الاستنتاج الجزئي فالكلي؛ فتُرتَب الأفكارُ، ويُحْكم الموضوع، الذي تقتضي دراسته الالتفات إلى الجانب التحليلي للتراكيب؛ للوقوف على أبعاد المعاني، ليتجلى جمال التعبير، ومصادر الجمال فيه، وتحديد الأسباب التي تثير فينا ذلك الشعور به، ثم الاعتماد على الاستدلال وحسن الاستنباط؛ لتحصين الاجتهاد بقوة الحجج والبراهين للوصول إلى أقصى ما قد يصل إليه العقل البشري من إدراك أوجه الجمال الذي لا ينضب معينه في التعبير القرآني الكريم، ولا يصل إلى منتهاه إلا الله العزيز الحكيم.

وإني لأرجو أن أكون بعملي هذا قد أضفت إلى المكتبة العربية جديدا، واستطعت توضيح جانب من جماليات القرآن الكريم؛ واستنباط أجمل الآيات وأجلّ الدلالات التي ترسخ في النفوس المسلمة قدرة الخالق المطلقة التي تغنينا عن الاعتماد على غيره–جل في علاه–، وبالله استعنت وهو ولي التوفيق.

الـتمهيـد

أبعـاد الدلالـة فـي القرآن الكريـم.

إن بعض النصوص القرآنية لا تحتمل الظنون؛ فلا تقبل التأويل؛ لأن معانيها واضحة صريحة الدلالة على مرادها؛ ولكنّ أغلب الآيات القرآنية تتسم بالعمق في المعاني؛ فتتعدد دلالاتها؛ حيث يغلب عليها الإيحاء والمجاز.

وإنّ قدرة الله وتمكّنه من كل شيء كائنٍ أو متخيلٍ من الأمور المعلومة التي لا تخفى دلائلُها عن كل جارحة في الإنسان (...إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)[1]؛ ولكنّ دلالة القرآن على قدرة الله لا تقف عند حد الإثبات، فهي فيض لا ينضب عطاؤه، وقد اعتنى القرآن بإبراز آياتها، وعدَّدَ مظاهرها وملامح طلاقتها وإعجازها وأسرارها وأبعاد جمالياتها التي لا تُدرك نهايتها؛ ليمنح الألباب المتعاقبة على مر العصور المتتالية فرصًا للإدلاء بدلوها بما يتناسب مع أحوال زمانها وبيئتها ومدى حظها من التقدم العلمي؛ ليتسابق الباحثون في القرآن على مر الأزمان؛ لينهلوا من أسرار هذا البحر العظيم، قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ)[2]؛ فإن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأصول العقائدية والتشريعية(هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ)[3] محكمة الدلالة واضحة المعاني؛ مما لا تدع مجالا للمتحايلين أن يُحرفوا

---

[1] – سورة البقرة، من الآية (٢٠).

[2] – سورة آل عمران، الآية(٧)

[3] –حيث شبه الآيات المحكمات بالأم، وأضافها إلى الكتاب؛ للدلالة على أنها الأصول التي تتولد عنها الفروع(المتشابهات).

معانيها ويُصرفوا الآخرين عنها؛ وهذا من إحكام البيان في القرآن ومن رحمة الله بالعالمين، وما عدا ذلك فهي من الآيات المتشابهات التي تتحمل الكثير من التأويلات، وتقبل التطويع بلا نهايات، فتتعدد معانيها، وتتكاثر جمالياتها، ولا ينفد إيحاءاتها وإعجازها؛ وهذا من معجزات آيات الذكر الحكيم؛ فكلٌ يؤولها على حسب معتقده وأهوائه وعلمه وموقفه من القرآن الكريم، الذي أوضح مؤكدًا بأسلوب القصر بـ(النفي، وإلا) أن ما يقبل التأويل من آياته لا يعلم وجهه الصحيح إلا الله (**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ**)، ولكنّ أهل العلم بشتى علومهم، المتمكنين من تخصصاتهم؛ يستنبطون من هذه الآيات ما تؤكده خبراتهم الواسعة؛ وهو أن هذا القرآن منزَّلٌ من لدن الحكيم العليم–جل في علاه–؛ فيتعزز الإيمان في قلوبهم، ويدركون أبعاد قدرة الله ويقرون بفضله، وشرط أولئك أن يكونوا من أصحاب العقول الخالية من الأهواء والأمراض، والقلوب السليمة النقية من دنس الكفر والمعصية.

جمال القرآن قِلة مِن عظمة بيان الرحمن[1]

إن قدرة الله تعالى نافذة في كل أمر، ولا يعجزها شيء، ومنها قدرته تعالى على بلاغة الكلام وحسن البيان، والقرآن عينة منها؛ حيث تتبادل خبرات، وتتبدّل أجيال، ويعكف علماء حول دراسته؛ دون أن ينقطع وحي أسراره، ولا ينفد بحر بيانه، تصديقا لقوله تعالى: (**وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2]، فقد مثلت الآية بما يمكن للذهن تخيل حصوله –وإن كان تحققه مستحيلا–؛ للتأكيد على عدم الإحاطة بطلاقة قدرة الخالق على البيان؛ حيث إذا أمكن حصر كل أشجار الأرض وإحالتها إلى أقلام، وجمع كل

---

[1] – حيث إن القرآن الكريم قلة من بيان الرحمن بما يتوافق مع أبعاد قدرات الإنسان على الإدراك والاستيعاب (مراعاة أحوال المخاطب).

[2] – سورة لقمان، الآية (٢٧)

بحور الأرض في بحر واحد وإحالته إلى مداد[1]، لاستهلكت الأقلام ونفد المداد، وما حُصر علم الله ولا قصر بيانه؛ تأكيدا على أنه تعالى لا تَنفد قدرته ولا يُدرك منتهاها، وقد بَنى القرآن هذه الصورة على أسلوب الشرط بـ(لو) التي تفيد امتناع تحقق جواب الشرط لعدم تحقق فعله؛ لكن القرآن قد غير في نظمها بما هو أبلغ في الدلالة على حدود قدرة الله تعالى؛ حيث إذا افتُرض تحقق المستحيل(فعل الشرط)، فلا يمكن الإحاطة بمدى قدرة الله تعالى(جواب الشرط)؛ لكونها تفوق ما يمكن للعقل البشري تخيله، وقد تلِيَ (لو) (أنَّ) المؤكدة، و(ما) الموصولة التي تفيد تعيين الأرض زمانا ومكانا؛ لإبراز مدى التمكن وسعة القدرة، ولا شك في أن هذه القدرة المطلقة تحتاج إلى (عزيز) ذي قوة نافذة لا غالب لها ولا مقيد لإرادتها، ولـ(حكيم) لا ينضب بيانه وحسن منطقه وعذوبة نظمه وسعة حكمته وعلمه؛ لذا اختتمت الآية بالتأكيد على إثبات هاتين الصفتين(**إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)، وجاءت الصفتان منكرتين؛ للشمول والانطلاق في القدرة والحكمة.

ومن ثمّ يمكن القول بأن هذا البحث هو عمل محدّد بقدرات مخلوق لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُحيط بقدرة الخالق، أو يُحصي جماليات كتابه أو أسرار بيانه، ولكن قد يضع هذا البحث أيدينا ويفتح بصيرتنا على شيء من ذلك؛ فيُرسّخ علمنا وإيماننا بوجود الخالق وعظيم قدرته وواسع فضله ورحمته؛ فنكون ممن شملهم قوله تعالى: ﴿...**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**﴾[2]، فاجتهادنا محدود، ويحتمل الخطأ والصواب، فنسأل الله له النفع والقبول والأثر المحمود.

---

[1] – إنه لما حصر القرآن في هذه الآية شجر الأرض؛ دل ذلك على أن إجمالي بحار الأرض سبعة رئيسة يتوزع منها المياه في كل أنحاء الأرض، وهذا هو المعهود في القرآن(التوافق والترادف في بناء الصورة)؛ وإلا جاء عدد البحور بما لا يحصى.

[2] – سورة آل عمران، من الآية (٧).

المبحث الأول: –

مـن قـدرة الله على الإيجـــاد

إن إيجاد الشيء من العدم وبدون سبق مثال؛ لأمر يفوق الإعجاز، ولا يقدر عليه إلا القدير – جل في علاه–؛ ومن ثم اقتصر الخالق هذه القدرة عليه ولم يُشرِك فيها أحدا من عباده؛ وقد عبر القرآن عن ذلك كثيرا، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] ؛ فتقديم المسند إليه(رَبُّكَ)، ونفي مجرد اختيار مثال المخلوق عن كل من سواه–جل في علاه–؛ يبين مدى دقة التعبير القرآني في قصر وحصر مهمة الإيجاد من العدم برمتها على الله.

ويقول تعالى على سبيل التعجيز؛ لفضح مدعي الألوهية في الأرض: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[2]؛ فإن القرآن ينادي بنداء البعيد بصوت ممدود يصل إلى جميع الناس في كل زمان ومكان يعلِّمهم كيفية التصرف مع من يأتي إليهم يدَّعي الألوهية ويدعوهم لعبادته؛ فاختبروه بمدى قدرته على الإيجاد من العدم ولو بأصغر مخلوقات الله وأوهنها، ولعل اختيار الذباب كأنموذج؛ لأن أنواعه كثيرة تزيد على المائة وعشرين ألف نوع؛ لذا جاءت لفظة(ذباب) جمعا منكرا؛ كما أنه من أضعف خلق الله وأوهنه، وهو أسرع مخلوق يتكون منذ عملية التبويض وحتى الموت، فإن ذبابة (مايو) هي صاحبة أقصر مدة حياة على كوكب الأرض؛ حيث تعيش في المتوسط لمدة أربع وعشرين ساعة، ويتكاثر الذباب عموما

---

[1] – سورة القصص ، الآية (٦٨).

[2] – سورة الحج، الآية (٧٣).

بصورة مذهلة، وتلد الذبابة في أماكن تحتوي على المواد العضوية المتحللة مثل قطعة طعام مكشوفة أو متعفنة حتى تتغذى اليرقات عليها بعد الفقس[١]؛ ومع كل هذه التسهيلات؛ فلن يستطيع أحدٌ خلقه إلا الله–جل في علاه–.

أما عن جماليات الأسلوب القرآني في هذه الآية، فيظهر في النداء المطلق في الزمان والمكان؛ لذا جاء المنادى بـ(**ٱلنَّاس**)؛ ولا يُعنى طلب إقبالهم، ولكن جاء في صورته؛ لضرورة انتباههم لما نودي من أجله؛ لذا عرض مضمونه في صورة(مَثَّل)؛ لكونه يحوي العجب والتشويق والإثارة والفائدة العامة التي تبقيه متداولا بين الناس؛ ثم التعبير بالفعل الأمر (**فَٱسْتَمِعُواْ**)الذي يبرز مدى أهمية ما يحمل هذا المثل من نفع يجب التمعن فيه والأخذ به، ثم بدأ المثل بحرف التأكيد(إنَّ)؛ للتصديق بما فيه الذي لا يقبل التغيير أو التشكيك، ثم قدمت القرينة(الفعل المضارع المنفي بلن؛ لاستمرارية دلالته على امتداد المستقبل) الدالة على جواب الشرط المحذوف في جملة الشرط بـ(لَو)؛ لبيان مدى الثقة من النتيجة قبل عقد الاختبار(**لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ**)؛ ولعل إشراك المدّعين للألوهية في التحدي فيما يخص الله يكسبهم شيئا من التقدير؛ فمحاها القرآن بمقابلتهم بهذا الكائن الضعيف المستقذر لديهم؛ حيث إذا سلبهم شيئا لن يستطيعوا استرجاعه منه– حيث اكتشف التشريح الحديث أن الذباب بلا معدة؛ فتقوم الذبابة بإفراز مادة إنزيمية على الطعام الذى ستأكله؛ لتذيبه وتهضمه وهو خارج جسمها قبل أن تأكله، ثم بعد ذلك تمتصه إلى أنبوبة داخل جسمها ويتم امتصاص الطعام فورا إلى الدم؛ فلو

---

[١] – ينظر: موقع بوابة أخبار اليوم الإلكتروني ، مقال بعنوان:(ذباب مايو يعيش يومًا واحدًا..)، بقلم/هناء حمدي، المنشور بتاريخ ٢٩ سبتمبر ٢٠٢١م .

شققنا عن معدته لإخراج ما أكله؛ لن نجد شيئاً؛ لأنه كما قلت ليس له معدة[1]–؛ فغلبة هذا الذباب لمدعي الألوهية؛ يكشف عن مدى وهنهم أمام أضعف مخلوقات الله (ضَـعُفَ ٱلطَّالِـبُ وَٱلۡمَطۡلُـوبُ)؛ ومن ثمّ يُؤكد بالنفي في آية مستقلة بعد هذه الآية أن الناس ما عرفوا قُدْرَةَ الله حق المعرفة؛ ليعظموه بما يليق بحقيقة قَدْرِه وسمو عظمته؛ ﴿مَـا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2]، فإن الله لقوي لا يعجزه شيء، وهو الخالق لكل شيء سواء علمه الناس وأحاطوا بأسراره أم لا، وإن الإيجاز لمِن أبرز جماليات التعبير القرآني عن ملامح قدرة الله؛ فيفيض بالمعاني الغزيرة التي تقبل التطويع والتأويل لأوجه كثيرة يحالفها الصحة.

ويعبر القرآن في هذا الصدد بأسلوب المفارقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُـونَ*أَمۡـوَٰتٌ غَـيۡرُ أَحۡيَـآءٖۖ وَمَـا يَشۡـعُرُونَ أَيَّـانَ يُبۡعَثُـونَ﴾[3]، فهؤلاء من تعبدونهم أو يدْعون الناس لتأليههم؛ يكفي الكشف عن كذبهم ومدى ضعفهم أنهم لا يَخلِقون (شَيۡـٔٗا) بالتنكير؛ للإحاطة والشمول لكل شيء، بل هؤلاء يُخلَقون وسيموتون، ولا يعرفون متى سيبعثون؛ فتبرز المفارقة مدى التناقض بين ما يدْعون وعلام يقدرون!.

* وفي آيات كثيرة يوضح القرآن الكريم مدى قدرة الله تعالى من حيث كيفية إيجاده للشيء من العدم، فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَـآ أَمۡـرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَـيۡـٔٗا أَن يَقُـولَ لَهُۥ كُـن

---

[1] – صحيفة دنيا الوطن الإلكترونية – مقال بعنوان:(الذبابة بلا معدة) بقلم / عبدالله عيسى– المنشور بتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠١٢م.

[2] – سورة الحج، الآية (٧٤).

[3] – سورة النحل. الآيتان (٢٠، ٢١).

فَيَكُونُ﴾[1]، (إِنَّمَآ) تفيد الحصر؛ للدلالة على عموم أمر الله تعالى في قضائه لكل شيء –لذا نكرت (شَيۡـًٔا)- أن يقول له:(كُن فَيَكُونُ)، بفعل الأمر الذي يدل على الإلزام والاستعلاء والتمكن، وعُبر بـ(الفاء) العاطفة دون غيرها من حروف العطف؛ لأنها تفيد التعقيب دون التراخي في العطف على الفعل؛ فكان المعنى: لمّا انتهى إصدار (كُن)؛ أُعقب بالتنفيذ على الفور(فَيَكُونُ) بفعل مضارع يدل على الحالية دون تراخ في التنفيذ؛ ولو قورنت هاتان الجملتان(كُن، فَيَكُونُ) اللتان تُعدان قانون الإله في قضاء أمره–جل في علاه– بكل أساليب اللغة، ما دل مثلهما على الإيجاز سواء في طلب إيجاد المعدوم(كُن)، والانقياد والخضوع والحالية في التنفيذ(فَيَكُونُ).

وقد كُرر هذا القانون الإلهي في آيات كثيرة بذات الصياغة والدلالة؛ ليفيد هذا التكرار اللفظي التأكيد والتقرير في ذهن المخاطب؛ مما لا يدع مجالا للتشكيك في قدرة الله على قضاء ما يريد، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]، وقال تعالى: (...إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5].

---

[1] – سورة يس، الآية(٨٢).

[2] – سورة آل عمران ، الآية (٤٧).

[3] – سورة البقرة، الآية(١١٧).

[4] – سورة مريم من الآية (٣٥).

[5] – سورة غافر ، الآية (٦٨).

ولمـا أخبـر القـرآن عـن المـدة الزمنيـة التـي يسـتغرقها قضـاء أمـر الله؛ جـاء الإخبار بصيغة المتكلم بـ(نا)التعظيم الذي حاشا أن نكذبه–جل جلاله– ولو كان الكلام يفوق استيعابنا، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ*وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[1]، فإن أمر الله منذ إصداره وقضائه على الوجه الأكمل – كما عبرت الآية الأولى– لا يتعدى المرة الواحدة، وهذه المرة الواحدة لا يتجاوز زمانها مدة تهيئة العين للبصر، وهذه أسرع مدة على الإطلاق يمكن للإنسان ملاحظتها، حين يفتح عينيه فتلحظ ما تقع عليه.

وللتأكيد على أن هذا الزمن المنصوص عليه في الآية السابقة يشمل أمر الله وانقضائه؛ ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، فإن الأمر بقضاء الساعة وتنفيذها على الوجه الذي أراده الله ما هو إلا زمن ما يلمح البصر الشيء أو أقل من ذلك؛ لذا جاء الإخبار عن هذه المدة مؤكدًا بأسلوب القصر – كالآية السابقة– الذي لا يحتمل تفسيرا غير الظاهر، ولا يقبل التأويل بغير المشبه به، ومن ثم لا يمكن للعقل البشري المخاطب بالقرآن إدراك ذلك؛ ليرد عليه القرآن في ختام هذه الآية بالتأكيد على (**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)، سواء في عظمة الأمر وقضائه على الوجه الأمثل، أو في سرعة تنفيذه التي تفوق استيعابكم.

* وقد كثرت الآيات القرآنية المعبرة عن مظاهر قدرة الله فيما أوجده؛ لكثرة عدَدَها، وتَعدُّد أشكالها، وتنوع أسرارها، وقوة دلالاتها على عظيم قدرة الخالق، ومن هذه المظاهر:

---

[1] – سورة القمر ، الآيتان (٤٩، ٥٠).

[2] – سورة النحل الآية (٧٧).

(١) خلق السماوات والأرض.

لقد أشار القرآن بصورة غير مباشرة بأن الله لم يبدأ خلقه بالسماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...﴾[١]، فقد سبقهما خلق العرش وخلق الماء؛ لذا قيل: أن الأرض خلقت من الماء، والسماء من بخار الماء(الدخان)[٢]، ولم يأت قوله تعالى:(**سِتَّة أَيَّـامٍ**) على سبيل الفخر؛ بل للإيحاء بعظمة هاذين المخلوقين وتمييزهما عن بقية خلقه؛ لذا يجعلهما–جل جلاله– الدليل الأعظم على تمكن قدرته في الرد على المشككين فيها، يقول تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٣] فإن استهلال الآية بالاستفهام المجازي الذي يكثف شعور التعجب من أمر المشككين في قدرة مَن خلق السماوات والأرض بادعائهم عدم قدرته على بعث الإنسان بعد موته!؛ مما يبطل إيجاده لهذا الخلق العظيم(السماوات والأرض) سوء معتقدهم، بل ويؤكد على أن الله على كل شيء قدير. وفي هذا الشأن –أيضا– يقول القرآن مستنكرا أمر أمثال السابقين باستفهام مجازي يبرز هول التعجب من زعمهم: ﴿**أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ**

---

[١] – سورة هود ، من الآية (٧).

[٢]– لقد خلقهما الله من العدم؛ ففي كل الأحوال لا يمكن للدخان أن يكون سقفا متينا، وليس للماء أن يكون يابسا مستقرا؛ ولكنها هي قدرة الله التي لا يعجزها شيء، ولا يحيط بها خيال، ولا يطيقها عقل؛ فمن رحمته أن جعل لكل شيء سببا؛ فأتبع سببا؛ وإلا وجدنا الطعام والماء وكافة المخلوقات على الأرض ظاهرين لأعيننا فجأة من العدم دون مقدمات أو أسباب؛ فتتوقف كل المساعي؛ أملا في خلق ما لا يُعلم له سببٌ.

[٣] –سورة الأحقاف، الآية (٣٣).

﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُـولَ لَهُۥ كُـن فَيَكُـونُ﴾[1]، فالسماوات والأرض يفوقان كل مخلوقات الله في عظمتهما وسعتهما وكثرة تفاصيلهما وما يحملانه من آيات، لاسيما احتواء السماء لهذا الكون العظيم وعرش الله الأعظم، وكثيرا مما يخفى علينا من أمورهما وعجائب صنعتهما؛ مما يدعوان من ينظر إليهما يسبح الله دوما لقدرته التي يعجز العقل عن الإحاطة بأبعادها؛ لذا جُعلا خير دليل يخرس به القرآن كل ألسنة المشككين؛ وصاغ القرآن هذه الردود في استفهام مجازي يعمق من تعجبه واستنكاره لمن يشكك في قدرة خالقهما، أو يتخذ من دونه ندا كما أوحى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ* فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]، فتوضح هذه الآيات تفاصيل الأيام التي خلق الله فيها الأرض والسماوات، فقد خُلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام، وقد رُبط بين الجمل المفصّلة لخلقها بحرف العطف (الواو)–التي تفيد مطلق الجمع دون الترتيب– من حيث إرساء الجبال فيها، وشق الأنهار وتهيئة التربة لإخراج الزروع من باطنها؛ لتقدير الأقوات؛ مما تكون ممهدة لاستقبال الإنسان الذي عُبر عنه في هذه الآية بأبرز طباعه في الحياة، وهو السؤال الذي لا ينتهي إلا بموته[3]، ثم تغير حرف العطف من (الواو)

---

[1] – سورة يس، الآيتان(٨١، ٨٢).

[2] – سورة فصلت ، الآيات (٩، ١٠ ، ١١، ١٢).

[3] – قال تعالى: "وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾سورة الرحمن الآية(١٠)، أي: لكل المخلوقات على الأرض؛ لذا قد يكون المراد بـ(السائلين) جميع المخلوقات الحية؛ لكونها تشترك في سؤال الرزق، ←←←

إلى(ثُم) –التي تفيد الترتيب والتراخي– في الحديث عن خلق السماء؛ للدلالة على أمرين، أولهما: أن الانتهاء من تشييد السماء على الهيئة الحالية، قد جاء بعد الانتهاء من تمهيد الأرض[1]، ثانيهما: للدلالة على أن الله تعالى لم يرد السرعة في الانتهاء من أمر الأرض والسماوات، ولو شاء لفعل؛ يدل على ذلك إيحاؤه–جل في علاه–إلى قانونه الإلهي في قضاء أمره بجملة اعتراضية توسطت الحديث عن خلقه السماء: **(فَقَالَ لَهَا**

←←←

ولا ضرر أن يكون الإنسان وحده؛ لأنه مشهور بكثرة السؤال؛ فقد جاء في القرآن الكريم سائلا عن أمور كثيرة، منها: الحاجة، والروح، والساعة وعن كل ما هو محبوب إلى النفس أو بمستغرب عنها، قال تعالى: "**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ**﴾. سورة يوسف الآية (٧).

[1] – هل كانت السماء موجودة قبل الأرض أم لا؟ بالفعل كانت موجودة؛ بدليل أن كل الآيات القرآنية التي عبرت عن خلقهما معا؛ قدمت السماوات على الأرض؛ وهذا الترتيب والتدقيق من أبرز خصائص القرآن، كما أن الاستواء إلى الشيء، يُعنى بأنه موجود، قال تعالى:(**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ**)؛ فالاستواء إلى الشيء يكون لإتمامه لإخراجه على الصورة النهائية، بدليل قوله تعالى:" **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**)سورة البقرة الآية(٢٩)، فكان الاستواء من أجل أن يجعل السماء المفردة –التي مازالت دخانا– سبع سماوات متماثلات، ويوحي إلى كل سماء أمرها، لاسيما السماء الدنيا التي جعل فيها بروجا تدور فيها النجوم المنيرة والكواكب السيارة؛ بما يتناسب حالها مع خلق كوكب الأرض الممهد لعيش الإنسان وغيره عليه، ولا أدل على ذلك كله من قوله تعالى مستعملا لفظة السماء المفردة:"**ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا*رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا*وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ *أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا*وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا**﴾ سورة النازعات، الآيات(٢٧، ٢٨، ٢٩،٣٠،٣١،٣٢).

وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَـآئِعِينَ)؛ لبيان مدى الخضوع والانقياد لأمر الآمر **(ٱئْتِيَـا)**؛ فقالتا في آن واحد وبلسان حال الواحد بفعل ماض**(أَتَيْنَـا)**؛ وكأن تنفيذ أمره––جل في علاه– يسارع في الانقضاء قبل الانتهاء من النطق به، ويزيد التأكيد على ذلك أن الأرض التي هي شيء لا يذكر في عظمة السماوات وسعتها؛ قد حصلت على النصيب الأكبر من الأيام الستة!.

وإن القرآن الكريم ليغلب عليه الإيحاء في الدلالة عن أبعاد قدرة الله تعالى؛ مما تحتمل نصوصه الكثير من التأويلات؛ ومن ثم يذهب بعض المشككين إلى أن خلق الأرض في هذه الآيات السابقة جاء في يومين، وخُلق ما فيها في أربعة أيام؛ بالمخالفة لما ورد في كافة الآيات القرآنية التي تنص على أن الله قد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام؛ لتوحي الآية اللاحقة بالجواب الذي يقول تعالى فيها:**(فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْـدِيرُ ٱلْعَزِيـزِ ٱلْعَلِـيمِ)**؛ حيث ذُكر عدد الأيام التي خلق الله فيها السماوات السبعة إجمالا، وفُصل القول بعدها عما خُلق في هاذين اليومين من أمر السماوات بحرف العطف (الواو) دون ذكر أيام أخرى؛ مما يؤكد على أن العدد المذكور سابقا هو الإجمالي لما فُصِّلَ تاليا،؛ حتى يُقاس على هذه الآية ما سبقها بشأن عدد الأيام التي خُلقت فيها الأرض وما بها تفصيلا، وهي أربعة أيام إجمالا–أيضا–.

وقد يُفسد الإنسان في الأرض ويغير معالمها ويشوه جمالها بعد أن ولّاه الله على كثير من أمورها، ولكن السماء قد تولى الله أمرها، وزين السماء الدنيا للناظرين، وأودعها الكثير من ملامح قدرته العظيمة، وحفظها من كل شيطان رجيم؛ فتبقى على صورتها الأولى التي تقابل بصر الإنسان دوما؛ لذا يكثر القرآن الاستشهاد بها على جمال صنع الله فيها، ويحث الإنسان على التأمل بها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِـن**

﴿فُطُورٍ*ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]، فقد خلق الله سبع سماوات متطابقات في خلقتها وسعتها وعظمتها دون أن يخل ذلك البناء المرفوع بلا عمد بنظام هذا الكون المتسع، ومن ثمَّ يحث القرآن الكريم- مرارا وتكرارا- الإنسان التأمل في السماء الدنيا بما مُنح من بصرٍ يمكِّنه من إدراك عجائب خلقتها ومدى قدرة الله فيها، فعبر بـ(ما) النافية التي إذا دخلت على الفعل المضارع نفت حاله(مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ) أي: حين تنظر إلى السماء لا ترى أيّا من مظاهر التضارب أو الخلل بين مخلوقاتها البديعة الكثيرة التي خلقها الله فيها؛ فآثر النفي بـ(ما)؛ حتى يسن للطالب من المطلوب منه إرجاع النظر مرة أخرى؛ ليأتي النفي في الثانية بـ(هل) الاستفهامية التي خرجت عن معناها الحقيقي إلى معنى النفي؛ لِتعمقَ من معنى النفي من خلال الإشارة إلى مشاركة كل مخاطَب في هذا النفي؛ حيث هذه الأسقف المرفوعة بما فيها من زينة كثيرة ومخلوقات عظيمة؛ لم يصبها الزمن بالتصدعات والشقوق والتشوهات والفناء كحال كل سقف يعايشه هذا الإنسان الناظر، وتُستهل الآية الثانية بعطف فعل الأمر(ٱرۡجِعِ) على مثيله السابق -اللذان خرجا من معنى الأمر إلى معنى التحضيض[2]- بحرف العطف(ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي في إرجاع النظر مرة بعد مرة؛ وفي كل مرة ينقلب البصر مندهشا مصابا بالإعياء والإجهاد من هول قدرة الخالق ودقة إحكامه؛ حتى يقضي الإنسان عمره تحت السماء دون أن يرى فيها شيئا ضئيلا (من) تفاوت أو بعضا (من) فطور؛ لذا سبق المصدرين (تفاوت، فطور)حرف الجر(من)

---

[1] – سورة الملك ، الآيتان(٣، ٤).

[2] – وهو (الحث الشديد) على إعمال البصر والعقل في ذلك؛ لما فيه الثواب العظيم والإيمان اليقين لصاحبهما؛ قال تعالى: ﴿...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ سورة آل عمران، من الآية(١٩١).

التـي تفيد الجزئيـة. وقد يكـون إعيـاء البصـر وإجهـاده مـن كثـرة مظـاهر قـدرة الله فـي سمائه التي يصعب على الناظر استقصائها، ولا يصل الباحث إلى أدنى حقائقها التي تفوق تخيله وتجاوز كل إمكانياته؛ كما هو الحال عند باحثي(الفلك) الذين يعجزون عن استقصاء آخره أو عدد كواكبه ونجومه، أو حتى معرفة عدد مجراته، بل يعجزون عن تصوير أبعاد المجرة التي يعيشون على أحد كواكبها الصغيرة.

(٢) خلق الإنسان وبعثه.

لقد كثرت الآيات القرآنية المعبرة عن خلق الإنسان وعجيب قدرة الله فيه، مفصلة القول عنه؛ وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على منزلة الإنسان التي كرمه الله بها، وتبصرته بالدلائل الملموسة في نفسه؛ لاهتدائه بها على وجود خالق عظيم القدرة، متقن الصنعة، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ* وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[١] أي: إن في خلق الإنسان منذ أن كان نطفة إلى أن استوى خلقه واشتد عضده حتى هرمه فموته، إن في كل ذلك لآيات كثيرات–لذا نكرت وجمعت (ءَايَـٰتٞ)–؛ يستدل بها أولو الأبصار على قدرة الخالق وعجيب صنعته، ومن ثم جاء الاستفهام (أَفَلَا تُبۡصِرُونَ) بمعنى الاستنكار المعيب على كل إنسان لا يبصر آيات ربه ودلائل قدرته المتعددة في خلقته، التي هي أقرب ما يكون إلى نفسه.

* ولقد فصل القرآن القول في خلق الإنسان بتعدد الآيات المعبرة عن كل مرحلة من مراحل تكوينه حتى أصبح شعوبا تعمر شتى أنحاء الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾[٢]؛ حيث قدم

---

[١] – سورة الذاريات، الآيتان (٢٠، ٢١).

[٢]– سورة الفرقان، الآية(٥٤).

المسند إليه(هو)، وأعقبه بالاسم الموصول؛ زيادة في التأكيد على الاختصاص والانفراد؛ فلا يحتمل المشاركة أو التأويل في الفعل(خلق)؛ وقد جاءت(بَشَر) منكرة؛ للشمولية في خلق جميع البشر من الماء، ولاشك في أن هذا يبرز مدى قدرة الله تعالى التي هي قدرة أزلية لا بداية لها، وأبدية لا نهاية لها؛ مما يُنفى عنها الاستحداث أو التغيير؛ لذا عبر عنها بالفعل الماضي(**وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**).

وقد تباينت الألفاظ القرآنية الدالة على أصل خلق(الإنسان)؛ لاعتبار مقامات السياق، ففي الآية السابقة جاءت لفظة(الماء) متوائمة مع سياق الآية السابقة لها، المعبر عن عجائب قدرة الله في الماء: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا**﴾[1]، ومن عجيب قدرته–جل في علاه– في الماء–أيضا– أن قد خلق منه بشرا يتكاثرون وينتشرون في كل مكان في الأرض.

ويلاحظ أن القرآن الكريم قد عبر عن أصل خلق (الإنسان) بـ(الماء)؛ وذلك حين يأتي اللفظ المعبر عن(الإنسان) نكرة مقصودا به عموم جنسه(بشر) منذ (آدم) – عليه السلام– حتى يقبض الله الأرض ومن عليها؛ إشارة إلى أن الماء هو الأصل في خلق الحياة على الأرض؛ يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...** ﴾[2]، فكلٌّ ما عدا عرش الرحمن هو (ماء).

وكذلك عبر القرآن بـ(الماء)عن أصل خلق الإنسان إذا كان السياق يعبر عن عموم المخلوقات الحية؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ**

---

[1] – سورة الفرقان ، الآية (٥٣).

[2] – سورة هود ، من الآية (٧).

﴿وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1]؛ إشارة إلى بداية خلق الكائنات الحية بعد أن مُهّدت الأرض لاستقبالها.

وقال تعالى –أيضا– في إخباره عن عجيب خلقه لكل ما يدب على الأرض من (ماء)، مفصلا لهيئاتهم؛ توضيحا لمراده–جل في علاه–: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2]؛ فيلاحظ أن لفظة (كُلّ) تسبق المخلوق (دَآبَّـةٍ)؛ للدلالة على الشمول والعموم؛ وللإشارة إلى أن (الماء) هو المادة الأولية في الخلق، والمشترك الرئيس بين كل المخلوقات؛ ثم تعددت وتنوعت أسباب خلق(الدواب) وطريقة نسلها بعد ذلك؛ لذا نُكرت لفظتا (دابة، وماء)؛ للتنويع في الدواب، أي: كل نوع من أنواع الدواب، وللتفاوت في الماء، سواء في مصدره وكميته على حسب أول خلق للدابة ومدى حجمها، أو في تحوله بعد ذلك إلى سائل منوي (والله أعلم).

* وقد عبر القرآن الكريم في سياقات متعددة عن أن أصل خلق الإنسان كان من (الطين)، وذلك في مقامين، الأول: تذكير الإنسان بحقيقته التي لا تتوافق مع بعض صفاته من الكبر والتعالي والكفر بالخالق–جل في علاه–؛ لذا كان يستخدم (إبليس) هذا اللفظ؛ إشارة إلى ما يكنّه للإنسان في نفسه من احتقار واستصغار، كما يوضحه التعبير بالاستفهام المجازي الذي بمعنى (الاستحقار) في قوله تعالى على لسان (إبليس): ﴿...قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾[3]، فقد حُذف الموصوف وذُكرت الصفة؛ مبالغة في

---

[1] – سورة الأنبياء، الآية(٣٠) .

[2] – سورة النور، الآية (٤٥).

[3] – سورة الإسراء ، من الآية (٦١).

مدى استحقاره للإنسان، وجاء –أيضا– على لسان (إبليس) مفتخرا بنفسه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾[2]، فعبر بلفظة (طِين)منكرة؛ لتذكير الذين كفروا بأصلهم؛ للتقليل من شأنهم؛ خاصة بعد مساواتهم بين خالقهم ومخلوق مثلهم.

والثاني: في إطار إخبار القرآن الكريم عن بداية خلق الإنسان حين خلق الله (آدم)–عليه السلام–، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾[3]، وأحيانا يفصل القرآن القول في هذا الطين سواء ببيان نوعه حين خلق (آدم)؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[4]، أو ببيان هيئته، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾[5]، وفي كلٍّ أجمع المفسرون على أن المراد بالإنسان في هذه الآيات هو سيدنا آدم–عليه السلام–، وإذا جُمعت هذه الآيات كونت مشهد خلق (آدم) –عليه السلام– .

ولعدم الزعم بالفصل بين خلق آدم –عليه السلام– وبقية سلالة البشر؛ فقد عبر القرآن في أكثر من آية بما يفيد ذلك؛ ليكتمل مشهد خلق الإنسان؛ ويغلق باب

---

[1] – سورة (ص)، الآية (٧٦).

[2] – سورة الأنعام، الآيتان(١، ٢).

[3] – سورة (ص) ، الآية (٧١).

[4] – سورة الحجر، الآية (٢٦).

[5] – سورة الرحمن، الآية (١٤).

الادعاءات الباطلة على أهلها[1]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ* ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[2]، فإن بداية خلق الإنسان كان من الطين، ثم صُير خلقه إلى ماء مهين؛ ليجعل فيه نسله الدائم وأسباب تكاثره؛ لذا عبر بالفعل (جعل) بدلا من (خلق)؛ أي: أنه كائن مخلوق من طين، ثم تغيرت أسباب نسله وجعلت في (المني)؛ ومُهدت السبل لهذا الماء للنمو حتى الاستواء على الصورة المقدرة للإنسان؛ ونفث الله فيه من روحه ليستطيع الحياة، وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا[3] يعينونه على العيش بصورة ميسرة ومدركة لمدى فضل الخالق عليه؛ ولكن غالبية الناس لا يدركون هذا الفضل ولا يقدِّرونه؛ بقلة الشاكرين له–جل جلاله– **(قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)**.

* وقد عبر القرآن في سياقات أخرى عن أصل خلق الإنسان من (التراب)، وجاء ذلك في سياق الرد على المشككين في (بعث الإنسان) بعد أن أصبح ترابا مختلطا بتراب الأرض كما عبر القرآن الكريم في كثير من آياته على لسان المشككين: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ...﴾[4]؛ ومنه –أيضا– قوله

---

[1] – كالقائلين بأن الخلق قد تجدد مرات ومرات، أو كمن قال بأن الإنسان في الأصل كان قردا، وغيرها من النظريات التي يكذبها القرآن، ولا يصدقها عقل.

[2] – سورة السجدة، الآيات(٧، ٨، ٩).

[3] – لقد كرر القرآن هذه الجوارح في كثير من آياته التي جاءت في إطار الحديث عن مدى قدرة الله في خلق الإنسان؛ ليبرز تكرارها شدة الاهتمام بها وأهميتها؛ لما فيها الكثير من الإعجاز الخِلقي، والاستدلال بها على قدرة الخالق، وسلامة الإيمان به، وغير ذلك كثيرا إذا تدبر الإنسان في كيفية خلقها وإمكاناتها.

[4] – سورة الرعد، من الآية (٥).

تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[1]؛ فلا شك في أن استعمال القرآن للفظة (تراب)في هذا الإطار؛ لَيَحْمِلُ الجواب اليقين بكل أبعاده في تلك المسألة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[2]؛ فإن كنتم تشكّون في إعادة بعثكم بعدما صرتم ترابا؛ فأذكركم بأن بداية خلقكم كان من هذا التراب؛ ثم صرتم على ما أنتم عليه الآن من هيئة حية لديها من الأعضاء والجوارح ما يُعينُها على الحركة والنمو والتكاثر والسعي، ولاشك في أن أصل الطين تراب مخلوط بالماء؛ فيحصل الترادف.

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[3]؛ فقد وردت هاتان الآيتان[4] في سياق التعجب من أمر الذين يكذبون بآيات الله ولقاء الآخرة؛ ليقدم القرآن في الآية الأولى مشهدا تمثيليا لكيفية بعث الإنسان من الأرض، ويؤكد في الثانية على هذا؛ بالإخبار عن حقيقة خلق الإنسان من تراب الأرض، ثم أصبح بعد ذلك بشرا قادرين على التكاثر ومنتشرين في كل أنحاء في الأرض؛ مما يبرز

---

[1] – سورة (ق)، الآية (٣).

[2] – سورة الحج ، الآية (٥).

[3] – الروم ، الآية (١٩، ٢٠).

[4] – ومثلهما ما ورد في سورة فاطر، الآية (١١)، وكذلك في سورة غافر، الآية (٦٧) .

قـدرة الله علـى إخراجـه مـن التـراب مـرة أخـرى، فيفنـد ادعـاءات الـذين كـذبوا بآياتـه ويشككون في قدرته–جل في علاه–على بعثهم ومحاسبتهم على ما اقترفوه من جرم.

ويُلاحظ أن القرآن الكريم في غالبية آياته الموضحة لحقيقة (البعث) يتكئ على التشبيه التمثيلي– كما هو ظاهر في الآيتين السابقتين–؛ لإيضاح صورة البعث الغيبية في صورة قريبة من إدراك الإنسان وحواسه؛ فما أقرب إلى بصره من إحياء الحبة بعد موتها ودفنها في الأرض الجامدة؛ فتنبت منها وتصير خضرة تشع بالحياة والنضرة؛ لذا كانت هذه الصورة هي الممثلة لحال بعث الإنسان بعد موته في حديث القرآن عن البعث وتأكيده له، ومنها–أيضا– قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] .

وسواء أكان الإنسان مخلوقا من ماء أو من تراب أو من طين أو من نطفة أو من علقة، كما عبر القرآن عن أصل خلقه في مجمل آياته، فإن ذلك يشير إلى بدايات مراحل خلق الإنسان قبل بث الروح فيه؛ وفي كل لا ينقص من قدرة الله تعالى شيئا؛ فقد خلق الله–جل في علاه– من هذه العناصر الميتة مخلوقا حيا في أحسن هيئة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]؛ ليحمّله الكثير من دلائل قدرته وعجيب صنعته، وقد فصل القرآن القول في خلقه منوعا في ألفاظه على حسب السياق المعبر عن مدى أبعاد قدرة الله في خلقه، ولا أدل على هذا من قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ*خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[3]؛ فلما كان مستهل الآية الأمر بالنظر للعبرة والاستدلال على قدرة الله؛ أتى المنظور إليه مما هو معهود لبصر لإنسان في خلقته، وهو (المني)؛ ولاشك في أن

---

[1] – سورة فصلت، الآية (٣٩).

[2] – سورة التين ، الآية (٤).

[3] – سورة الطارق، الآيات(٥، ٦).

ذلك يبرز مدى قدرة الله الذي جعل من هذا الشيء (المني) جسدا ينمو ويتحرك ويشعر ويفكر ويتكاثر. وقد يكون اختيار اللفظة متناسبا مع جمال السجعة والتناغم الصوتي لخواتيم الآيات القرآنية دون أن ينقص ذلك من إبراز عظيم قدرة الله شيئا، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾[1]؛ فدل على إعجاز قدرة الله في خلقه للإنسان من قطعة دم متجمد، وفي ذلك –أيضا– إشارة إلى مراحل تكوين الجنين في رحم أمه المظلم؛ قبل أن تصل أجهزة الطب الحديث بمئات السنين.

٣– مخلوقات أخرى.

لقد اعتنى القرآن بذكر (المخلوقات الأخرى)سواء مجملة أو مفصلة؛ لغايات كثيرة؛ أبرزها هو استبصار المخاطَب لقدرة الله في كل مخلوقاته؛ تأكيدا على وجود خالق عظيم القدرة محكم الصنعة، جليل المقصد في كل ما يخلق؛ يقول تعالى: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2]؛ ففي كل مخلوق يدب على الأرض لَدَلائل كثيرات واضحات لكل ذي فطرة نقية؛ فتزيده إيمانا بوجود الله وعظيم قدرته إلى حد اليقين الراسخ؛ فما أقرب إلى معرفة الإنسان من أن جميع الدواب قادرة على التناسل والتكاثر والحركة والنمو والسعي وراء الرزق المكفول لها ثم الموت؛ بالإضافة إلى الخصائص الذاتية التي تميز إحداها عن غيرها ومكملة لما ينقصها؛ فيحصل التوازن البيئي الذي يحافظ على استمرارية هذه الحياة على الأرض، وقد قدم ما حقه التأخير في قوله تعالى: (وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ)؛ لتمكين الخبر في ذهن المخاطب؛ تأكيدا على أهميته وضرورة الأخذ به، وقد أُفرد الإنسان عن بقية الدواب؛ لتمييزه؛ لاسيما

---

[1] – سورة العلق، الآية (١، ٢).

[2] – سورة الجاثية ، الآية (٤).

بالعقل المُخاطَب بهذا القـرآن الكـريم، كما أن كـل مـا فـي الأرض مخلـوق لـه، قـال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾[1].

وفي هذا السياق–أيضا– يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]؛ فقُدِّم المسند إليه(ٱللَّـهُ) للاختصاص والانفراد؛ فهو الذي خلق من شيء واحد ليس له أيٌّ من مقومات الحياة(ماء)– نكرت للتهوين–؛ كائنات حية كثيرة ومتغايرة في الهيئة والطباع والحجم والقدرات، ولكل منها عالمها الخاص من حيث تدبير شئونها وتصريف أمور حياتها على الوجه الذي يضمن لها استمراريتها للقيام بمهامها التي وجدت من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[3]؛ ولا شك في أن هذا يؤكد على (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)؛ مؤكدا بـ(إنَّ) والجملة الإسمية، وقدم (كُلّ) التي تفيد العموم والشمول لما دخلت عليه، وهو (شَىْء)؛ الذي جاء منكرا؛ ليحيط مدلوله بكل ما له وجود متحقق أو ما يمكن تصوره؛ ونكرت (قَدِيرٌ) وبنيت على صيغة المبالغة؛ لإحاطة الشمول والعموم في (كُلِّ شَىْء).

وقد اعتنى القرآن الكريم في هذا السياق بتسليط الضوء على المخلوقات المتصلة بحياة الإنسان، القريبة من عينيه؛ لعله يدرك أسرار قدرة الخالق فيها ومدى رحمته به؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[4]؛ فليس طلب

---

[1] – سورة البقرة ، من الآية (٢٩).

[2] – سورة النور، الآية (٤٥).

[3] – سورة الأنعام، الآية (٣٨).

[4] – سورة الغاشية، الآية (١٧).

النظر من الإنسان مقصورا على (الإبل) وحدها، بل ذكر الجزء وأراد الكل على سبيل المجاز المرسل لعلاقة (الجزئية)؛ وخص الإبل بالذكر؛ لكونها أقرب ما يكون من المخلوقات الحية لعين وإدراك المخاطَب الذي عهد على تربيتها ومصاحبتها في أسفاره وتنقلاته؛ بل قد تكون أكثر ما قضي معها الإنسان القديم غالبية أوقاته التي أفناها في التنقل والترحال؛ مما يكون خبيرا بها؛ ومحيطا بخلقتها البديعة وما تحويه من عجائب وأسرار مثيرة[1]؛ تسوق المتأمل فيها إلى الإيمان بوجود خالق عظيم ذي قدرة غير

---

[1]- لُقب الجمل العربي بسفينة الصحراء؛ انطلاقاً من أنه أفضل الوسائل الفطرية للسفر والحمل والسير في الأراضي الصحراوية الجافة؛ حيث يستطيع قطع مسافة تصل إلى الخمسين ميلا في اليوم الواحد، متحملا الجوع والعطش لعدة أيام متتالية في درجات حرارة مرتفعة في قلب الصحراء؛ وذلك كله بفضل ما يتمتع به هذا الحيوان الصبور من ميزات جسدية ووظائفية لا تتوافر لغيره من الحيوانات، فمن الصفات الجسدية أن الله –عز وجل– جعل في رأس الجمل أنفاً ذا منخارين، لهما القدرة على الانغلاق كلياً تحاشياً لرمال الصحراء العاصفة ومنعاً لجفاف القصبة الهوائية، إضافة إلى عينين حادتي الإبصار ترتفعان فوق رأسه المحمول على عنقه الطويل وجسده المرتفع عن الأرض؛ مما يوسع مجال الرؤية، ولكل واحدة منهما طبقة من الأهداب تقيها من هبوب العواصف الرملية في الصحراء، ولفم الجمل شفتان عريضتان، السفلى منهما مشقوقة؛ حتى تمكنه من تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه، وعلى جانبي رأس الجمل أذنان صغيرتان محاطتان بشعر كثيف لوقايتها من الرمال العاصفة، خاصة وأن الله الخالق المبدع قد أعطاها القدرة على الانثناء إلى الخلف والالتصاق بجانبي الرأس لمنع دخول الرمال فيهما، وفضلاً عن ذلك فإن أقدام الجمل خلقها الله سبحانه منبسطة على هيئة الخف المكون من نسيج دهني سميك يعين الجمل على السير فوق الرمال الناعمة، وفوق غير ذلك من أنواع التربة الخشنة والصخور، كما أن طول سيقان الجمل تبعده عن التأثر بحرارة الأرض، وارتفاع سنامه يبعد غالبية جسده عن التأثر بحرارة الشمس، لأن تكتل كمية كبيرة من الدهون في منطقة السنام يحول دون انتشار حرارة الشمس إلى داخل الجسم، خاصة أن الخالق العظيم قد ألهم الجمل بالوقوف متعامدًا مع أشعة الشمس قدر الاستطاعة حتى لا يتعرض لها جسده إلا

←←←

→→→
أقل مساحة ممكنة ، وهذا السنام تتجمع به كمية من الدهن تصل أحياناً إلى ١٢٠ كيلو جراما، حيث يتحول الدهن في السنام لإنتاج ماء وطاقة ، فإذا جاع الحيوان يتحول الدهن لإنتاج طاقة في الجسم، أما إذا عطش فيحول هذا الدهن إلى ماء –ومن المعروف بين الأطباء أن الإنسان إذا صام أكثر من يوم يبدأ يتحلل الدهن في جسمه فتحدث حموضة في الدم ثم يدخل الإنسان في غيبوبة إذا طالت فترة الامتناع عن الطعام، أما الجمل إذا حول الدهن كله إلى ماء أو إلى طاقة فلا تحدث عنده هذه المشكلة أبداً–، وقد درس العلماء وجه هذا الحيوان فوجدوا فيه جيوب أنفية (ممرات داخل عظام الوجه)، وظلوا يبحثون عن فائدتها، ولماذا تختلف عن باقي الحيوانات؛ فوجدوا أن الهواء الساخن يدخل من الأنف ويتم تبريده بمكيف هواء فيُبِّرد الأوعية الدموية التي تغذي المخ من أجل أن تحميه من ضربة الشمس فيدخل الدم الشرياني إلى المخ بارداً فلا يتأثر من الهواء الساخن، ورقبة الجمل تعمل طبقاً لقانون الرافعة؛ حيث نقطة الارتكاز عند التقاء العنق بالساقين الأماميين، فيبدأ الجمل بشد هذه الرقبة؛ فيخفف الحمل عليه؛ فيستطيع أن يقوم بقدميه الخلفيتين وهو يحمل هذه الأثقال، فالجمل هو الحيوان الوحيد الذي يحمل وهو في حالة الرقود؛ فيستطيع أن ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به، وخلق له وسادة أسفل صدره تعرف باسم الكلكل، ووسائد مشابهة فوق كل ركبة من ركبه، وهذه الوسائد تمكن الجمل من الرقود على الأرض مهما كانت قاسية وخشنة دون أذى، كما تعينه على رفع جسده عن الأرض لعزله عن حرارتها وللسماح لتيار من الهواء يتحرك بينه وبين الأرض لتهويته وتلطيف درجة حرارته.

وقد جعل الله –عز وجل– للجمل جلداً غليظاً جداً، قليل المرونة؛ لكي يكون قادرا على تحمل العواصف الحارة المحملة بالرمال عند هبوبها، وعلى مقاومة لسعات الحشرات وقرصات غيرها من الحيوانات، خاصة وأن هذا الجلد يغطيه وبر سميك يدفئ جسم الجمل في الشتاء ويحمي حرارته من التصرف إلى الخارج، ويحميه من حرارة الشمس الحارقة في الصيف، ويمتاز جلد الجمل كذلك بقلة انتشار الغدد العرقية فيه؛ مما يقلل من فقدان مخزونه المائي عن طريق العرق، وقد تحدث العديد من خبراء التغذية عن لحوم الإبل ووصفوها بأنها أفضل غذاء للإنسان، وكذلك حليبها الذي يطلق عليه (الذهب الأبيض). ينظر: موقع (الانتباهة أون لاين)–
←←←

متناهية، وذي رحمة واسعة سخّر بها للإنسان حيوانا ضخما يعينه على قضاء حوائجه ويخضع لأوامره؛ لذا يتعجب القرآن في هذه الآية تعجب اللائم على الإنسان غض بصره وإيقاف عقله عن إدراك كل هذه الحقائق المتعددة الواضحة القريبة منه.

وما أجمل الأثر النفسي والمادي حين تسخير قدرة الخالق في خدمة المخلوق، وهذا يتجلى أثره في خلقه –جل جلاله– (الأنعام)[1] للإنسان، قال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ*وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ*وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾[2] لم يذكر القرآن خلْق (الأنعام) إلا واقترنت بضمير المخاطب العائد على الإنسان؛ تأكيدا على أنها خلقت من أجله ورحمة به، وهذه الرحمة تتجلى سعتها في قوله تعالى:(**مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ**)؛ كمن يقول: هذا من عمل يدي لأجلك؛ تعبيرا عن عميق محبتك في قلبه بدليل ملموس لك؛ وهذا ما يؤكده– أيضا– قوله تعالى:(**فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ**)؛ فيُقصر استعمالها على الإنسان؛ وكأنها ملك خالص له يتصرف فيها كيفما شاء، وهذا ما يؤكده–أيضا– تعدد منافعها على الإنسان ومدى استفادته منها من حيث تذليلها وخضوع قوتها لرغبته؛ حتى أنها تحمله وتحمل متاعه إلى حيث أراد ومهما طالت المسافات دون اعتراض أو تمرد عليه، بل وصل

→→→

مقال بعنوان: (الإعجاز العلمي في خلق الإبل)– بقلم/ مجدي الحسين– المنشور بتاريخ ١١ يناير ٢٠٠٩م.

[1] – تطلق الأنعام على الإبل والبقر والضأن والمعز، وأكثر ما تطلق على الإبل، وسميت هذه الحيوانات بهذا الاسم، لكثرة نعم الله فيها على خلقه. ينظر: تفسير النسفي(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) – لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود(النسفي)المتوفى سنة ٧٠١هـ – تحقيق/ السيد زكريا– المجلد الثاني ، صـ ٥٧٧– مكتبة نزار مصطفى الباز– .

[2] – سورة يس، الآيات(٧١، ٧٢، ٧٣).

مدى خضوعها إلى حد ذبحها وأكل لحومها، ولا تأبى من أن يسخرها في أي عمل يجلب المنفعة له، وكذلك يشرب منها لبنا متعددا في مذاقه وفوائده ومصادره؛ لذا نكرت وجمعت (مَشَـارِبُ) وبنيت على صيغة اسم المكان؛ لتوفيرها في كل مكان حسب كثرة وارديها؛ وكأنها نهر لا ينقطع نبعه ولا يُرد قاصده؛ مما يستوجب على الإنسان الشكر لمن وهب له الأنعام وسخرها على هذه الكيفية؛ ومن ثمّ يتصدر الاستفهام الاستنكاري هذه الآية؛ للمعيب على كل إنسان رأى بعينيه دون أن يبصر بقلبه عظمة الخالق ومدى قدرته في خلق الأنعام، كذلك اختتمت باستفهام استنكاري؛ زيادة في التأنيب والمعيب على كل إنسان يتقلب في هذه النعم دون أن يشكر الواهب؛ وفي هذا إيحاء إلى أن خلق الأنعام يستوجب أمرين: الإيمان بوجود خالقها وعظيم قدرته، وشكره على نعمه الوفيرة فيها.

ويتكئ القرآن الكريم في بيانه لعظمة خلق (الأنعام) وتعدد منافعها على التكرار؛ –وما أجمل التكرار حين يحيلك إلى جديد من منافع المكَرَّر–؛ فيقول تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]؛ فمن الأثر الطيب العائد على المخاطبين من خلق الأنعام؛ أنْ خلقَ فيها ما يعينكم على التدفئة؛ سواء بصنع اللباس من جلودها وأصوافها وأوبارها، أو من صنع الأحذية من جلودها؛ فتحصل التدفئة لعموم أجسادكم– ونكرت منافع لكثرتها–، ومن هذه المنافع –أيضا– أنكم تأكلونها وتأكلون من نسلها ولبنها، ومن منافعها–أيضا– هذا الجمال النفسي في شعور الإنسان أمام الآخرين بامتلاكها سواء في سراحه عليها أو في رواحه؛ فقد

[1] – سورة النحل، الآيات(٥، ٦، ٧، ٨).

فُطر الإنسانُ على التباهي بممتلكاته والإحساس بالجمال النفسي وسطها[١]، ولعل المراد بالجمال النفسي في هذه الآية ما هو بارز في (الإبل)؛ إشارة إلى العلاقة النفسية وجمال الشعور المتأصل بين العربي وناقته، والشعر الجاهلي حافل بهذه الأشعار المتغنية بالأثر النفسي للرحلة والراحلة؛ وكم كان للنوق الفضل الأعظم في انتشال الشاعر العربي مِن همومه وأحزانه، ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر(طرفة بن العبد) :

وإنّي لأُمضي الهمَّ عند احتضاره بعوجاءَ مرقال تروحُ وتغتدي[٢]

حيث ينتقل الشاعر إلى وصف الناقة والرحلة بعد أن أحاطه الهم والحزن على فراق محبوبته(خولة)، إذ يركب على ناقة ضامرة سريعة تجوب به الصحاري نهارا وليلا فتنسيه الهموم؛ وهذا يدفعنا للقول بأن المراد بالأنعام في هذه الآية هي (الإبل) وحدها، ويزيد هذا تأكيدًا ما ورد في الآية التالية الذي يُعد علامة واضحة ومفرقة بين الإبل وبقية الأنعام، وهو حمل الأثقال إلى مسافات بعيدة يصعب على غيرها حملها (**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ**)؛ كذلك تَوافق هذا (الحمل) مع سياق الآية اللاحقة المعبرة عن النفع العائد من خلق الخيل والبغال والحمير.

---

[١] -والإبل كانت أنفس أموال العرب، ويضربون بها المثل في نفاسة الشيء، ومن ذلك قوله-صلى الله عليه وسلم- لعَلِيّ- رضي الله عنه- : "فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم" وهي الإبل الحمر. موقع (إعجاز القرآن والسنة، مقال بعنوان (الإعجاز الإلهي في خلق الإبل) – بقلم الأستاذ/ عبد القادر شحرور ، المنشور بتاريخ: ٢١ديسمبر/٢٠١٩م.

[٢] – ديوان:(طُرفة بن العبد) – شرح وتقديم/ مهدي محمد ناصر الدين- صـ٢٠- دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان- ط٣-٢٠٠٢.

والمتأمل في الآيات الثلاثة التي قيلت في الإبل؛ يلاحظ حسن تقسيمها على حسب نوع الاستفادة منها، فالأولى: اختصت بإبراز النفع العائد من الأنعام على تغذية الجسد من الدفء والطعام والشراب، والثانية: ما يعود منها على النفس من خلق جمال الشعور فيها ونسيان همومها، والثالثة: ما يعود على راحة الأبدان بحمل الأثقال عنها؛ مما يبرز للمتلقي أن الآيات القرآنية لم تقسم اعتباطا أو لأجل تناغم الوقفات فحسب، ولاشك في أن هذا التنوع الأثري في المنافع العائدة على الناس من الأنعام؛ لفيه الدليل الكافي على رأفة الخالق بعباده رأفة شملت الاهتمام بكل ما يعنيهم ويعينهم على تقوية أجسادهم وجمال نفوسهم وراحة أبدانهم، ومن ثمّ تتضح دلالة التأكيدات فيما ختم الله به هذه الآيات من صفاته–جل في علاه–(**إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**).

ثم تَتبع هذه الآيات ما جاء على سبيل التذكير بهذه المخلوقات التي سخرها الله للإنسان لغرض حمله ونقل أغراضه، وهي (الخيل والبغال والحمير)، ومنها ما يزيد على هذا، وهي (الزينة)، ونكرت للإفراد والتخصيص من مجمل أسباب خلقة هذه الدواب؛ إشارة إلى (الخيل) التي يتسابق الناس في اقتناء أجملها وأكثرها أصالة وندرة، ولم يقتصر القرآن على هذا؛ فيسابق الزمن ويقطع الطريق على المتشككين في القرآن المدعين لعدم مواكبة دلالاته وحسن تشريعاته لكل حدث وكل زمان؛ فقال تعالى في سياق هذه المخلوقات: (**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**) بفعل مضارع يدل على الاستمرارية والتجدد في إيجاد هذه المخلوقات التي تخدم الإنسان في هذا الإطار (النقل والزينة)؛ للتأكيد على استمرارية إيجاد خلقٍ جديد يتوافق مع حال البشرية مستقبلا؛ من حيث كثرة أعدادها وتزايد المسافرين والمهاجرين، وضرورة النقل بين الدول والقارات، وضخامة المتطلبات والمنقولات؛ مما تكون هذه الحيوانات المذكورة غير قادرة على القيام بكل هذا،

وحينئذ يُوحى إلى الإنسان صناعة ما وفر ومهد له الخالق لوازم صنعته؛ ولم يكن له سابق دراية بها، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

*وإن (النبات) لمخلوق ككل المخلوقات الحية، بل وأكثرها دلالة على قدرة الله العظيمة؛ لذا بدأ القرآن حين إخباره عن خلق النبات بـ(سبحان الخالق)، يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، فالنبات كائن حي يقوم بعملية التزاوج التي لا تكون إلا بين الأحياء؛ حتى يحصل التكاثر، ولكن تختلف طريقة تكاثره عن بقية المخلوقات؛ حيث يعتمد على غيره من الإنسان أو الحشرات أو الرياح بنقل اللقاح من الذكر إلى الأنثى(يُوضح ذلك في سياقه)؛ وتتوافق سبل تكاثره وسرعة نموه وتوافره مع مدى الحاجة إليه ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[3]، ولاشك في أن خلقه على هذه الطريقة لفيه القدرة التي تجعل من ينظر إليه يخضع لكمال خالقه، لتنزيهه عن كل نقص أو تشكيك في تمكن قدرته، بل وشكره على عظيم فضله وكثرة آياته التي يعجز العقل عن تفسيرها؛ فتأتي(سبحان الله) للإحاطة بكل هذه الأفكار والمشاعر أمام هذا المخلوق؛ يؤكد هذا كثرة الآيات القرآنية المعبرة عن أبعاد قدرة الخالق فيه، يقول تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4]؛ فإنه لمن العُجاب أن الأرض الواحدة تقسم إلى قطع متجاورة، وكل قطعة تنبت حبا مختلفا تماما عن القطعة المجاورة، بل إن جنان الفاكهة

---

[1] – سورة العلق، الآية (٥).

[2] – سورة يس، الآية (٣٦).

[3] – سورة القمر ، الآية (٤٩).

[4] – سورة الرعد، الآية (٤).

لتحوي الواحدة منها الكثير من الثمار والزروع المتغايرة المتداخلة ذات أشكال متباينة وأطعم مختلفة، بل الأعجب من هذا أن النخيل الذي هو واحد في هيئة شجره؛ إذ تتباين ثماره وتتفاضل من حيث الطعم والاستواء والألوان والأحجام على الرغم من وحدة التربة والماء والشجرة؛ للتأكيد على أن السر في إنبات النبات هي قدرة الله وحدها، وقس على هذا غالبية الحبوب والزروع والشجر، ولكن ذكر النخيل؛ إشارة إلى الاهتمام به في طيب ثمره وكثرة نفعه، ولمقربته من إدراك المخاطَب، ووفرته في حرثه، وخبرته الدقيقة بكل أنواعه وثماره وأسراره؛ ولاشك في أن هذا لفيه البراهين الواضحة على عظيم قدرة الخالق، بل وسعة إنعامه على الإنسان المستفيد الأول من كل هذه الزروع والثمار المتعددة؛ والمخاطب بهذه الآيات، والحث على تدبرها؛ لليقين عقلا والإيمان قلبا بوجود خالق لكل هذه المخلوقات المحيطة ببصره متى وأين أبصر.

* والمتأمل في (الأفعال) التي عبر بها القرآن عن قدرة الله في الإيجاد من العدم؛ يلاحظ دقة دلالتها من حيث استعمال ما يقتصر إسناده حقيقة إلى الله وحده، ولا يشاركه فيه غيره؛ نحو (خلق، أنبت، أحي، بعث)؛ وقد كثر استعمال (خلق)؛ لكونها الأقرب دلالة على عملية الإيجاد، والمناسبة لكافة السياقات القرآنية التي جاءت غالبيتها للإخبار عما خَلق الله؛ لذا كثر ورودها على صيغتي (الماضي والمضارع) على حسب زمن المخلوق وتجدد خلقه، كذلك كثر إتيانها على صيغة (اسم الفاعل)؛ لإمكانية الحمل على الثبوت أو الحدوث باعتبار المخلوق؛ فلئن اختلف النحاة في زمن (اسم الفاعل)؛ لكن السياق القرآني كان دقيقا في توظيف دلالته على ذلك؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[1]؛ فالتعبير هنا باسم الفاعل دون الفعل يشير إلى أمرين، أولهما: أنه لا راد لأمر الله إذا أراد؛ حيث التعبير باسم الفاعل

[1] – سورة الحجر، الآية (٢٥).

يدل على رسوخ النية على القيام بالفعل، ثانيهما: عدم التقيد بزمن واضح، حيث تفيد(خالق) الحدوث باعتبار خلق (آدم)-عليه السلام- وتجدد هذا الخلق مستقبلا، وقد تفيد الاستمرارية، إشارة إلى أن الله قد أراد استمرارية وجود البشر على الأرض؛ يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[1]، أي: باعتبار ما سيكون من أمر البشر بعد خلق الله لـ(آدم)-عليه السلام- وهو (الخلافة في الأرض)؛ لذا لم يعبر القرآن في كل آياته عن إخبار الله ملائكته بخلق (آدم) إلا بـ(اسم الفاعل).

وقد أتى التعبير بـ(اسم الفاعل) بما يجعل من الحدوث أمرا دائما كما ورد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2]، فجاء السياق القرآني ما يخرج من إشكالية حدوث اسم الفاعل؛ بل جعل من دلالته صورة بليغة دقيقة في مرادها، فقيّد زمن الحدث بكل شيء مخلوق؛ فمتى وجِدَ مخلوق في أي زمن؛ أُسند إيجاده لزاما لخالق واحد لا إله إلا هو، المتصرف في شئونه كيفما شاء؛ وفي هذا تأكيد على أن الله هو الخالق وحده.

والصورة الثالثة لاسم الفاعل من(خلق) في القرآن هو التعريف بـ(الـ)؛ لإفادة الاختصاص والانفراد كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ... ﴾[3]، فهو الله الذي خلق ويخلق[4]؛ ولا خالقا غيره، مما يدل اسم الفاعل هنا على الثبوت والحدوث معا في الحدث؛ باعتبار أحوال كل المخلوقات.

---

[1] – سورة البقرة، من الآية (٣٠).

[2] – سورة الأنعام(، الآية (١٠٢).

[3] – سورة الحشر، من الآية (٢٤).

[4] – ذهب جمهور النحاة على اعتبار (الـ) إذا دخلت على (اسم الفاعل) كانت اسما موصولا.

وقد استعمل القرآن الفعل(خلق) بمعنى (صنع)، وذلك بلغة من يطلقون على الصانع اسم الخالق، كما في قوله تعالى على لسان سيدنا (عيسى بن مريم)–عليهما السلام–: ﴿...أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُـونُ طَـيۡرَۢا بِـإِذۡنِ ٱللَّهِۖ...﴾[1] أي: أصنع لكم من الطين ما هو على هيئة الطير، وقال تعالى على لسان سيدنا(إبراهيم)–عليه السلام– ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ..﴾[2] أي: تصنعون تماثيل تَدَّعون فيها الأكاذيب والألوهية.

كذلك يأتي القرآن بهذه اللغة في سياق الموازنة بين ما يخلقه الله وما يصنعه المشركون باعتبار لغة المخاطب أو اعتقاده، كما جاء في قوله تعالى على لسان سيدنا (إلياس)–عليه السلام–:﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِـينَ﴾[3]، في موازنة بين صنعتهم للصنم الذي يدعونه(بَعۡـــلًا)، وبين صنعة الله؛ فلاشك في أن الفارق بين الصنعتين متسع إذا نظروا إلى أنفسهم، وفي هذه الموازنة إعمال للعقل؛ للاستدلال على عظمة الخالق ومدى قدرته وإبداعه فيما خلق.

بل إنه ليغلب على البشر في كل زمان حين إتيانهم بصناعات عجيبة؛ يضاهون بها ما خلق الله، خاصة ما تكون على هيئة الإنسان ونمط سلوكه كـ(الروبوت أو ما شابهه) في الزمن المعاصر؛ فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُـلَٰلَةٖ مِّـن طِينٖ*ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ*ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَـا ٱلۡعَلَقَـةَ مُضۡـغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَـنُ

---

[1] – سورة آل عمران ، من الآية(٤٩).

[2] – سورة العنكبوت، من الآية (١٧).

[3] – سورة الصافات – ، الآية (١٢٥).

﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1]، فأتت الآيات على لسان الخالق بـ(نا) التعظيم؛ لما بها من إعجاز وتعجيز على الإتيان بمثله من بداية خلق الله لـ(آدم)من (الطين)، حتى أن جعل نسل الإنسان في (نطفة) تقذف بالرحم؛ وتستقر به حتى تُخلق كل أعضائه وتكتمل صورته المميزة له، ويمده بـ(الروح) التي تجعل منه كائنا حيا قادرا على الحياة والحركة والفكر والشعور والتكاثر، فلاشك في أن موازنة هذا بما يدّعيه الإنسان من خلقٍ؛ تجعل كل عاقل ذي فطرة نقية يقول:(فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ)على امتداد الحدث والزمن، سواء في الهيئة أو في القدرات والإمكانيات في موازنة صريحة وردٍّ مباشر على من يدّعون خلقتهم لأشياء ما استطاعوا أن يصنعوها لولا أن وفّر الخالق لهم جميع مكوناتها ولوازمها؛ لغايات منها ضرورة حاجة الإنسان إليها لراحته وترفيهه وتكريمه؛ لذا من الجهل والسفه أن يضاهي أي صانع صنعته أو اختراعه بما خلق الله(أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ)؛ في إشارة إلى جهل هؤلاء؛ فعلى الرغم من خلق الله لهم، ومنحِه عقولهم من علم ومعرفة ونعم كثيرة، لكن هكذا حال المشركين؛ يهبهم الله من نعمه ويستأمنهم عليها؛ فيستعينون بها في الاستقواء بشركهم ومعاداة الخالق في أرضه، قال تعالى﴿...وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2] أي متأصلا فيه، منذ خلقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ندر الإتيان بمادة (خلق) في القرآن على صيغ المبالغة؛ لأنه لا خالق إلا الله؛ وقد جاءت في موضعين على صيغة (خلّاق)فحسب، وجاءتا في سياق الرد على المشككين في بعث الإنسان وحسابه؛ لدلالتها على تمكن قدرة الله تعالى في الخلق، وإحاطة علمه بكل مخلوق؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا

---

[1] – سورة المؤمنون، الآيات (١٢، ١٣، ١٤).

[2] – سورة الأحزاب، من الآية (٧٢).

﴿بِٱلۡحَقِّۖ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2]؛ حيث يتوافق دلالة التعبير بصيغة المبالغة في صفتي(الخلق والإحاطة) مع مقام الرد على المكذبين المشككين بيومي البعث والحساب. ولهذا السبب –أيضا– أتى الفعل(بعث) مؤكدًا بشتى التأكيدات في الرد على المشككين في عملية البعث في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[3]؛ فجاء الأسلوب قويا؛ مؤكدا بالقسم، واللام المؤكدة للفعل (لَتُبۡعَثُنَّ) الواقعة في جواب القسم، ونون التوكيد؛ مما يتناسب هذا الأسلوب مع مقام الرد على المشككين المكذبين.

واستعملَ القرآن الفعل(فطر)في الخلق، وقد تباين استعماله عن(خلق)؛ فاستُعمل (خلق) في عموم التعبير عن خلق الله، ولكن قُيد استعمال (فطر) في الخلق؛ حين الإيحاء باستعظام الصنعة باعتبار المتكلم، قال تعالى:﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾[4]، أي: أوجدهما على هذه الصورة العظيمة البديعة، وقال تعالى على لسان سحرة فرعون،: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ...﴾[5].

ولاشك في أن دلالات القرآن تفوق كل القدرات والإمكانيات البشرية؛ فقطفنا من جنانه الواسعة المثمرة بعظيم قدرة الله على الإيجاد ما تدلّى لاستيعابنا ومداركنا؛ وإن أشجارها لتعلو وتعلو وتعلو على كل عالٍ.

---

[1] – سورة الحجر، الآيتان(٨٥، ٨٦).

[2] – سورة (يس)، الآية (٨١).

[3] – سورة التغابن، الآية (٧).

[4] – سورة فاطر ، من الآية (١).

[5] – سورة طه، من الآية (٧٢).

المبحث الثاني: -

مـن قـدرة الله عـلى تسيير ملـكـه

إن تقدير أمر الخَلق وتدبيرَه على وجه التمام؛ لَأَمر قد يفوق في قدرته إيجاد هذا الخلق، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، " فلا يحدث أمرا في العالم العلوي أو السفلي"[2] بما يحويانه من بلايين البلايين من المخلوقات المتحركة والجامدة، المسيرة والمتحررة، الدقيقة والظاهرة، البالية والمتجددة، إلا وفق إرادته وتدابير أمره في نظام دقيق يبقي على هذا الكون لملايين السنين، وهو يسير في دقة وانتظام جعلت الإنسان لا يفكر لحظة في احتمالية تعطل أحد لوازمه من شمس وقمر وليل ونهار وماء وغيرهم كثيرا من الأمور اللازمة لاستمرارية الحياة على وجه الأرض؛ لذا اعتنى القرآن الكريم بإبراز مدى قدرة الله على تدبير أمره وإدارة ملكه فيما يخدم الإنسان ويوفر له احتياجاته للعيش على الأرض؛ لأنه مخاطب بهذا القرآن؛ ومطالب بعبادة الله وحده بعد الإيمان بوجوده؛ ومن هذه المظاهر الكونية التي اعتنى القرآن بإيضاح عظيم قدرة الله في إدارتها:

١- الشمس والقمر

لقد اعتنى القرآن الكريم بالحديث عن الشمس والقمر بكثرة آياته المعبرة عنهما بشتى تفاصيلهما؛ لأنهما من المخلوقات العظيمة الضرورية لحياة الإنسان، والمصاحبة لعينيه في أغلب أوقاته، والأكثر دلالة على وجود الخالق وعظيم قدرته لاسيما في إدارته

---

[1] - سورة السجدة، الآية (٥).

[2] - تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه- الشيخ/ محمد علي طه الدرة- المجلد السابع- صـ٣٨٥- دار ابن كثير ، دمشق، بيروت، ط١ ، ٢٠٠٩.

لهذا الكون؛ وقد كانتا من أولى المخلوقات التي استدل بها سيدنا (إبراهيم)–عليه السلام– على وجود إله عظيم يدير هذا الكون وفق نظام دقيق؛ ولهذا الغرض –أيضا– وظفهما القرآن الكريم كثيرا، قال تعالى: ﴿...وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[1]، فعبر بالفعل الماضي (سَخَّرَ)؛ للتأكيد على أن أمر الله في ذلك قد نفذ فلا رادّ لأمره ولا خروج عن تكليفه، وعبر بالفعل (يَجْرِي)؛ للدلالة على أنهما متحركان حركة سريعة، وبُني على المضارعة؛ للدلالة على أن هذه الحركة مستمرة في ذاتها، ومتجددة في أثرها على الخَلق حتى وقت محدد قد قدره الله؛ وعبر عن هذا الوقت بـ(أَجَلٍ)؛ للدلالة على نهايتهما آنذاك؛ فأجل الشيء نهايته، وجاء (مُسَمًّى) مبني للمفعول؛ للدلالة على أن هذا الأجل قد حُدِّد فلا يتغير، ومجهول العلم به لكل ما عداه– جل في علاه–؛ إشارة إلى وقت قيام الساعة؛ وهذا كله– بلا شك– لا يقدر على إدارته إلا إله قدير، هو ربكم الأحق بعبادتكم، لأنه المالك الأوحد لهذا الملك؛ لذا قدم ما حقه التأخير في قوله تعالى:(لَهُ الْمُلْكُ)؛ لحصر الملك وقصره على الله وحده سواء في الامتلاك أو التصرف؛ ليتكئ القرآن بعد حصر الملك كله لله على المقابلة بينه وبين ما يملكه الذين يُعبَدون من دونه، فهم لا يملكون في ملكه حتى مقدار القشرة الرقيقة التي بين التمرة ونواتها، التي بلا قيمة ولا طعم ولا وزن ولا حجم لاسيما إذا تعرضت لشمس الخالق.

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ* وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ* لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

---

[1] – سورة فاطر، من الآية (١٣).

[2] – سورة يس ، الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠).

يوضح القرآن للمخاطب بعض الأسرار الفلكية البعيدة عن إدراكه، فيخبرنا أن الشمس تتحرك بسرعة كبيرة[1]؛ وعلى الرغم من ذلك فإن بعدها عن الأرض لا يتغير لمليمتر في مفارقة مثيرة؛ للدلالة على أن مدار الشمس ثابت من حيث الابتعاد والقرب من كوكب الأرض.

ومن الإعجاز اللغوي في هذه الآية أن الضمير في قوله تعالى: (**لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ**) يجوز أن يعود على الأرض وعلى الشمس معا؛ ومن كليهما يكتمل المشهد، فعودته على الأرض غير واضح في الآية لكن يشير إليه: أن الاستقرار منافٍ للجري؛ والشمس تجري لأجل مسمى، كما أن الآية التالية تبين أن الله قد جعل حركة القمر في منازل بالنسبة للأرض(**وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ**)؛ ومن ثمّ يكون المعنى: أن الشمس لا تجاوز في جريانها هذا المستقر المكاني الذي صمم بما يجعل الشمس مستديمة الظهور على الأرض؛ وهذا ما يوحي به (لام الجر)في قوله(**لِمُسْتَقَرٍّ**) التي بمعنى (في)؛ لدخولها على اسم مكان(**مُسْتَقَرّ**)، وأوثر استعمال (اللام)؛ للإشارة إلى أن هذا المستقر المكاني ثابت للأرض في كل نقاطه، ممتد في ذاته؛ إيحاء إلى حركة الشمس في مدارها حول مركز المجرة.

وقد يعود الضمير في قوله تعالى:(**لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ**) على الشمس؛ وهذا يفسر أن الشمس تجري في مكانها–أيضا– بسرعة مقدرة بما يحافظ على استمرارية توهجها ودرجة

[1]– باستخدام طريقة جديدة وبيانات من تلسكوب الفضاء غايا(Gaia)، (قدّر) علماء الفلك سرعة دوران الشمس حول مركز مجرة (درب التبانة) بما يساوي ٢٤٠ كم\ثانية تقريباً. ومنها توصلوا إلى أن الشمس تبعد عن مركز المجرة ٧.٩ كيلو بارسيك (فرسخ فلكي)، بما يعادل 26ألف سنة ضوئية. موقع (ناسا بالعربي) الإلكتروني– مقال بعنوان(معرفة سرعة الشمس والمسافة إلى مركز المجرة– بقلم / سارة الراوي–بتاريخ٢٣مارس– ٢٠١٧م.

حرارتها[1]؛ وبما يحافظ –أيضا–على ثبات درجة حرارة الأرض، ومن ثمّ تتفاوت درجات الحرارة على سطح الأرض على حسب تعامد محورها وانحرافه عن مستقر الشمس؛ إيحاء إلى دوران الأرض حول الشمس؛ مما ينتج عن هذا تعاقب الليل والنهار والفصول الأربعة على كل أنحاء الأرض على امتداد السنة الشمسية؛ وبدون شك يؤكد هذا على أن حركة الشمس بالنسبة للأرض ليست حركة عشوائية، بل مقدرة وفق حسابات دقيقة ونظام محكم يتواءم مع طبيعة الحياة على الأرض وإمكانيات مخلوقاتها، ومن ثمّ لا يَقدرُ على ذلك إلا (**ٱلْعَزِيزِ**)الذي يخضع كل شيء لقدرته وعظمته، (**ٱلْعَلِـيمِ**) بأدق الأمور وأخفاها وما يتوافق مع احتياجات مخلوقاته؛ لذا جاءت صفتا(**ٱلْعَزِيـــزِ ٱلْعَلِـــيمِ**) معرفتين بـ(الـ)، مبنيتين على صيغة المبالغة(فعيل)؛ للانفراد والاختصاص بالصفتين في هذا المقام؛ أي لا يَقْدِرُ على هذه الحركة إلا العزيز، ولا يُقَدِّرُ حسابها إلا العليم – جل في علاه–.

أما (القمر) فليس بمستقر في رؤيته للأرض؛ حيث جعله الله في (منازل)؛ وهذا يرجع إلى التقديرات الحسابية والهندسية الدقيقة سواء في إعداد مداره أو في تقدير سرعة جريانه؛ وقد نكرت (منازل)؛ لكثرة تفاوتها من حيث القرب والبعد عن الأرض؛ حيث يجري القمر في إحداها كل ليلة ولا يتجاوزها؛ لغايات– فسرها القرآن في سياقها–، ويجسد القرآن هذا من خلال تصويره الدقيق لحال القمر الذي تبدو هيئته للأرض في

---

[1] – وهذا الاستقرار المكاني(الحركة المكانية) يحافظ على ثبات درجات الحرارة المناسبة والغازات اللازمة لاستمرارية حياة الكائنات الحية على كوكب الأرض؛ فلو اقتربت الشمس من الأرض لاحترق ما عليها واشتعلت الغازات القابلة للاشتعال، والعكس؛ حيث توصل علماء الفلك أن درجة حرارة الشمس داخل نواتها حوالي (خمس عشرة مليون درجة مئوية)، والعالم كله يترقب ويرتعد لمجرد ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض بعض الدرجات المئوية عن معدلاتها الطبيعية(الاحتباس الحراري)!.

أولى منازله كما ينتهي عند آخرها، مشبها صورته في آخر منازله بشيء ملموس وقريب من إدراك المخاطب، وهو عذق النخلة بعدما يقطع منها، فكلّما يَبس؛ كلّما تقوس حتى يأخذ شكل القوس، وعبر القرآن بالفعل(عاد) إشارة إلى حال القمر . وهو عودة هيئته للأرض من حيث بدأ، وهكذا في كل دورة له؛ وفي هذا زيادة في التأكيد على أن القمر يدور حول الأرض.

وعلى الرغم من الحركة السريعة لكليهما(الشمس والقمر)؛ والتقديرات الحسابية الدقيقة في رسم مدارهما؛ فلا يمكن أبدا أن يختلا في الزمان أو المكان لوهلة؛ مما لا يتقدم الليل ولا يتأخر النهار عن موعدهما للحظة؛ لحركة الأرض المحكمة –أيضا– بالتزامن الدقيق مع حركتي الشمس والقمر؛ قال تعالى: ﴿**فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ**﴾[1].

وليس هذا التقدير الدقيق خاص بهم فحسب؛ بل إن الشمس والقمر والأرض(الليل والنهار)– حيث ذكر الحال (الليل والنهار) وأراد المحل(الأرض)؛ لوضوح تعاقبهما للمخَاطَب كالشمس والقمر بخلاف الأرض[2]– وغيرهم يتحركون دون توقف في فلك عظيم السعة ضمن أفلاك السماء الدنيا بصورة منتظمة (**وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ**)، وهو ما يعرف بحركة المجموعة الشمسية حول مركز المجرة التي يتبعونها المعروفة باسم(درب التبانة)؛ لذا عُبر بـ(كل)، ونُكرت لفظة(فلك)، وجُمع (يسبحون)، وقد عبر القرآن عن حال كونهم جميعا في فلكهم بالفعل(يسبحون)، باستعارته من الحركة في الماء لحركة الشمس والقمر والأرض وجميع النجوم والكواكب السيارة في مداراتها؛ لبيان

---

[1] – سورة الأنعام، الآية (٩٦).

[2] – ويجوز أن يكون مجازا مرسلا علاقته (المسببية)؛ حيث ذكر المسبب(الليل والنهار)، وأراد السبب(دوران الأرض حول محورها؛ مما ينتج عنه تعاقب الليل والنهار تعاقبا دقيقا).

أن جميعها تجري بانسيابية ولا تفارق مداراتها. ويجوز –أيضا– استعارة (يسبحون) لـ(فَلك)؛ لتشبيهه بالبحر الواسع، الغامض في أغواره، العجيب في أسراره؛ الذي يحوي بلايين المخلوقات، منها العملاق والدقيق، والمعتم والمضيء وغيرهم كثيرا، وكل لا يشغل حيزا من سعة البحر كحال الشمس والقمر والأرض وغيرهم من سعة فَلَكِهم أو مجرتهم (درب التبانة) التي هي إحدى المجرات المتوسطة ضمن مئات الآلاف من مجرات السماء الدنيا.

ولعل القرآن لم يأت بلفظة(فلك) إلا منكرة؛ لأنه يحمل من الأسرار والسعة والعدد ما لا يطيقه عقل الإنسان؛ ولقد مُهِّد للإنسان أن يتعرف على بعض أسرار الأفلاك بما أُوحي إليه من صنع أقمار صناعية ومركبات فضائية؛ فعَلِمَ من سعة الفَلَك ما لم يكن يتخيله، ولن تدرك آلاتُه نهايته، قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[1]، فقد خُلق الفلك بما لا يُحاط بحدوده، وقُدِّم الجان على الإنسان في هذه الآية؛ للدلالة على أن قدرة الأول على النفوذ والاختراق والسرعة تفوق قدرة الإنسان مهما مُهد له من آلات تعينه في هذا الشأن .

وبدون شك فإن الشمس والقمر لَيحملان دلائل واضحات تبعث لأولي الأبصار رسالة مفادها: إن هذا الكون لم يخلق عبثا؛ بل له مالك أوحد يديره على الوجه الأكمل كما هو ظاهر لبصرك؛ وقد عبر القرآن عن ذلك تعبيرا صريحا، قال تعالى: ﴿...وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2]؛ فقد عبر بالفعل المضارع (يدبر، ويفصل)؛ للدلالة على

---

[1] – سورة الرحمن، الآية (٣٣).

[2] – سورة الرعد، من الآية (٢).

استمرارية سوْق البراهين الدالة على وجود الله وعظيم قدرته- سواء بالتأمل فيها أو باكتشافها-، وقد عبر القرآن بـ(لَعَلَّكُم)بلام السببية وحرف الترجي في مخاطبة الإنسان؛ للإيحاء إلى رحمة الله تعالى الذي يدبر أمره ويفصل آياته على الوجه الذي يُقدم للإنسان البراهين الواضحة الدالة على وجوده-جل في علاه-؛ وقد عبر (بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ) عن وجوده؛ مما يشير إلى أن هذه الآيات كافية لأن يصل المخاطب إلى أعلى درجات الإيمان واليقين بوجود الله وتصديق ما أُخبر عنه؛ فاللقاء نقيض الحجاب، وهو اجتماع الشخصين وجها لوجه بعد فراق أو غياب؛ قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[1].

* وقد تعددت النصوص القرآنية التي وظفت آيتين(الشمس والقمر) في سياق إظهار عظيم فضل الله على الإنسان وسعة رحمته به في تسخير مخلوقاته في خدمة مخلوقِه وتوفير احتياجاته، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]، فقد جعل الله الشمس ضياء، والقمر نورا؛ والأصل في الضياء أنه لا يكون إلا من جسم متوهج؛ فينتج عنه ضوء، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ...﴾[3]، وإنّ قوله تعالى: (...يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ..﴾[4]؛ لَيفرقُ بين الضياء والنور؛ حيث يوجد مع الضياء حرارة بخلاف النور؛ وإن حرارة الشمس لَلَازمة لنمو الكائنات الحية، بخلاف ضيائها الذي يتوقف عليه استمرارية الحياة على الأرض؛ وإن القمر بمنازله المتعددة المتغايرة

---

[1] – سورة الرحمن، الآية (١٩).

[2] – سورة يونس الآية (٥) .

[3] – سورة البقرة، من الآية(١٨) .

[4] – سورة النور من الآية (٣٥).

واختفائه ليوم أو يومين كل شهر؛ حتى يعلم الناس حساب الشهور والسنين – خاصة في زمن ليس فيه دليل على التقويم سوى القمر – قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ...﴾[1].

وليس بعد هذا التوضيح دليل على أن الله لم يَخلقْ شيئا عبثا؛ بل وفق تقدير دقيق وتدبير محكم، وحكم سامية غايتها خدمة عباده وتصريف أمورهم دون مشاقة تعييهم وتملهم من الحياة؛ لعل منهم من يعلم قدره ويشكر فضله–جل جلاله–.

بل إن من أثر الشمس على الإنسان أن يعرف ويستدل بواسطتها على أوقات النهار؛ وعليها تُضبط كل المواقيت العالمية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا *ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[2]؛ فيذكرنا بأمر ظاهر واضح لا تكذبه أعيننا؛ لذا عبر عنه باستفهام يحمل معنى التقرير؛ لحمل المخاطب على الاعتراف بقدرة الخالق الواضحة لبصره وعقله، فهو قطعا يرى أثر الظل الذي يحميه من قسوة حرارة الشمس ويعينه على قضاء حاجاته دون إعياء؛ وفوق كل هذا يتعرف الإنسان على أوقات النهار؛ ولهذا قد ربط الله الظل بطلوع شمس النهار؛ فيحبسه عنده وقتا قصيرا لحين طلوعها، ويبرز القرآن مدى رحمة الله بمخلوقه في هذه الآية حين التعبير بضمير الغائب عما لا يحمد عقباه ولا يعينه على قضاء حوائجه إذا ثُبِّت هذا الظل؛ ليلتفت إلى المتكلم حين تصريفه لما فيه الخير لمخلوقه بجعله الظل متحركا حسب طلوع الشمس واستوائها وغروبها ليريح مخلوقه ويحميه (وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا).

---

[1] – سورة البقرة، من الآية (١٨٩).

[2] – سورة الفرقان ، الآيتان (٤٥، ٤٦) .

ويلاحظ في أغلب النصوص القرآنية المعبرة عن الشمس والقمر استعمال الفعل(جعل)على الرغم من كونهما مخلوقين؛ وذلك يوحي بأن خلقهما ضمن خلق السماء الدنيا التي خلقت على هيئة تناسب طبيعة كوكب الأرض واحتياجات من عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[1]؛ لذا قيل أن الخلق هو التقدير، أما الجعل هو التضمين[2].

وقد عُبر بالفعل(تَبَـارَكَ)؛ إيحاءً بتعاظم قدرته وتكاثر فضله، اللذان لا يُدرك منتهاهما، خاصة حين جعل في السماء الدنيا مدارات عظيمة تتحرك فيها الكواكب والنجوم السيارة بانتظام وانسيابية؛ فلا تتصادم ولا تخرج عنها؛ ليحافظ على هذا الكون ويحميه من الانهيارات والكوارث التي قد تودي بحياة الإنسان أو تعصف بلوازمه، خاصة وقد جعل فيها– سواء في السماء أو في المدارات– شمسا وهاجا تمد الكون بالحرارة والضياء؛ لتمارس المخلوقات على الأرض حياتهم بكل أريحية، وجعل فيها قمرا ينير به ظلمة الليل ليستهدي به من في الأرض على طريقهم، وقد عُبر بـ(سِراج) وأتى به(اسما) قاصدا الشمس، وعُبر بـ(مُنير) وأتى به (اسم فاعل)؛ للدلالة على الثبوت في الأول، والتجدد في الثاني؛ مما يفرق بين أجسامهما؛ فالإضاءة في الأول ذاتية ثابته كحال (الاسم)، وفي الثاني مكتسبة ومتجددة كحال (اسم الفاعل).

٢–الليـل والنـهـار

لاشك في أن الليل والنهار من الأمور اللازمة لاستمرارية الحياة على الأرض؛ وأي خلل فيهما يُعني اضطراب هذه الحياة وتهديد الإنسان بالفناء، وما حدثَ هذا، ولن

---

[1] – سورة الفرقان، الآية (٦١).

[2] – ينظر: تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه– الشيخ/ محمد علي طه الدرة– المجلد الرابع، صـ٢٧٦ .

يحدثَ كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

وإن الليل والنهار لَيحملان الكثير من الدلائل الواضحة على قدرة الخالق، وقد اعتنى القرآن بذلك؛ بكثرة الآيات المفصلة لشتى أحوالهما وأهميتهما، منها:

* عملية تبادل الليل والنهار حين ينكشح النهار كاشفا عن ظلمة الليل أو العكس في صورة تبهر الأبصار وتهتز لها القلوب الحية، ففي الأولى قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[2]؛ حيث مثّلَ القرآن باللفظ الاستعاري(**نَسْلَخُ**) الذي يصور الليل بالحيوان الذي يُسلخ جلده(النهار)المُجمّل لصورة ظلامه الموحشة؛ في تصوير دقيق ملموس حين انتزاع النهار كاشفا عن ظلمة الليل.

وفي الثانية عبر القرآن بقوله تعالى : ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا...﴾[3]؛ فاستعمل اللفظ الاستعاري(**فَالِقِ**) من فلق النوى لإخراج النبتة؛ لتجسيد صورة النهار حين تشرق الشمس على جزء من الأرض؛ فتفلق أشعتها ظلمة الليل لتدفعها إلى أجزاء أخرى؛ وفي هذا التصوير إشارة واضحة إلى أن شعاع الضوء يسير في خطوط مستقيمة، وإن السلخ لَمناسب للظلام، وفلق النوى مناسب للنور واستعادة الحركة والحياة، يؤكد هذا التصوير قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[4]؛ لتتجلى عمق الدلالة ودقتها في تشكيل الصورة البيانية وروعتها في التعبير عن تعاقب الليل والنهار.

---

[1] – سورة يس ، الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠).

[2] – سورة يس ، الآية (٣٧).

[3] – سورة الأنعام، من الآية (٩٦).

[4] – سورة التكوير، الآية (١٨).

أما من الناحية العلمية(الظاهرة الفلكية)؛ فحين تطلع شمس النهار على جزء من الأرض؛ يشق شعاعها ظلمة الليل ويدفعها إلى أجزاء أخرى من الأرض، بخلاف ظلمة الليل التي يكشف عنها انكشاح ضوء النهار عن هذا الجزء لينتقل إلى آخر؛ وهذا هو التكوير الذي عبر عنه قوله تعالى: ﴿...يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ...﴾[1] فإنّ الليل يدور ويلف في كل أنحاء الأرض، ويُكوّر ويُحيط بالنهار، وكذلك يفعل النهار بالليل .

* ويوضح القرآن مدى قدرة الله تعالى ودقة إحكامه لعملية إيلاج الليل في النهار والعكس، قال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[2].

فتبرز هذه الآية مدى الإحكام في تسيير حركتي الليل والنهار وفق حسابات دقيقة؛ فعبر بالفعل المضارع(تُولِجُ) الذي يشير إلى تجدد تداخل أوقات الليل في النهار باستمرار؛ فيطول الليل والعكس، وهكذا على امتداد أيام السنة الشمسية؛ دون أن تنقص لحظة من نهار يوم من أيامها(الثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع اليوم) أو ليلة من لياليها على امتداد الزمان الكوني؛ مما يكشف عن مدى الانضباط والدقة في حركة الأرض سواء حول محورها، أو حول الشمس؛ قال تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ...﴾[3].

ثم توضح هذه الآية أن هذه العملية الحسابية الدقيقة لتباين أوقات الليل والنهار على امتداد السنة الشمسية مرتبط ارتباطا وثيقا بعملية النمو والتكاثر والتأثير في كل

---

[1] – سورة الزمر، الآية (٥).

[2] – سورة آل عمران، الآية (٢٧).

[3] – سورة المزمل، من الآية (٢٠).

مخلوقات الأرض لاسيما في الزروع[1] التي يَخرج من حبها الميت النباتُ الحيُ، والعكس(وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ)؛ تأكيدا على أن كل شيء قد قدّره الله بحساب دقيق لا يزيد ولا ينقص عنه لغايات يعلمها الله، –ويُعْلِمُنا منها ما يشاء– إلا رزق عباده، فإنه بغير حساب(وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) في مقابلة معنوية تبرز مدى رحمة الله بعباده ووافر عطائه؛ لعلهم يشكرون.

---

[1] – وهو ما يعرف في علم النبات بعملية (البناء الضوئي)، فالعلماء يقسمون تفاعلات البناء الضوئي إلى تفاعلات الضوء وهي التي لا تتم إلا في الضوء (النهار)، وإلى تفاعلات الظلام وهي التي لا تتم إلا في الليل؛ فإن اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً نوراً وظلاماً برودة ودفئاً من أهم عوامل استمرار الحياة على الأرض؛ ففي النباتات الزهرية إذا لم تتكون الأزهار؛ لا تتكون الثمار ولا الحبوب، وهذه الأزهار لا تتكون في أي نبات إلا إذا تكونت فيه أولاً مادة كيميائية حيوية تؤدي إلى عملية الإزهار، هذه المادة تسمى هرمون الإزهار (lowaring Hormone)، وهذه المادة تتكون فقط عندما يختلف الليل والنهار في حياة النبات؛ فتكوين هذا الهرمون متوقف على تتابع فترة الإضاءة وفترة الإظلام ومدة كل منهما واستمرارها، وشدة الضوء والظلام. وتوجد في الكائنات الحية الأخرى غير النبات كائنات حية لا تنشط إلا في الليل وأخرى لا تنشط إلا في النهار، وتوجد جراثيم لا تخرج من مكامنها إلا ليلًا وأخرى لا تخرج إلا نهارًا، ووجد بالتجربة أن طبقة الأوزون تحمي كائنات الأرض من شدة الإضاءة ونوعيتها، وزيادة الضوء عن الحد المقدر يؤدي إلى هلاك الكائنات الحية، فعندما زادت كمية الضوء وتغيرت نوعيتها بالنسبة إلى بعض النباتات انخفضت نسبة البروتين فيها ٢٠% عن المعدل، ووجد أن الليل ضروري لحماية تلك النباتات والحفاظ عليها من الهلاك. موقع (الإعجاز في القرآن والسنة)الإلكتروني– مقال بعنوان:(آية اختلاف الليل والنهار في ضوء علوم الفضاء)– بقلم/ د. نجاة محمد رشيد رؤوف العبيدي، بجامعة بغداد قسم الفلك والفضاء– المنشور بتاريخ ١ديسمبر ٢٠١٩.

* وكما أن لـ(الليل والنهار) دلائل واضحات على قدرة الله ومدى إحكامه في إدارة ملكه، كذلك لهما جوانب أخرى تؤكد على عِظم فضله عليهم، وقد وظفهما القرآن في هذا السياق كثيرا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾[1]؛ فقد شبه(الليل) باللباس، بجامع الستر والتغطية؛ مما يهيئ لجسد الإنسان الراحة اللازمة؛ وهذه الراحة لا تكون إلا بـ(النوم) ليلا؛ لذا جعل الله فيه كافة عوامل الارتياح للبدن من السكون والهدوء والظلام بخلاف النهار ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ... ﴾[2]؛ فترتاح كافة أعضاء الجسد ليلًا ليتجدد نشاطها؛ استعدادا لضوء النهار الذي عبر عنه القرآن بالنشور (وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا)؛ فإن الانتشار في الأرض لطلب الرزق سبب رئيس لتحصيل ما يعيش به الإنسان؛ وقد أكد القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى:﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[3]؛ لتضيف كل لفظة وَصَف القرآن بها الليل النهار ملمحا مهما؛ يبرز أهميتهما وأثرهما على حياة الإنسان وغيره من الكائنات الحية.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾[4]، فإن محو الليل لَإشارةٌ إلى أن الليل هو الأصل؛ وقد خلق الله شمس النهار لتزيل عتمته؛ مما يمهد للإنسان سبل الحركة، وقد صور النهار بالمبصر؛ إشارة إلى حقيقة تشريح عين الإنسان بأنها تبصر بالضوء؛ حيث إن عدسة عين الإنسان هي

---

[1] – سورة الفرقان، الآية (٤٧).

[2] – سورة الأنعام، من الآية (٩٦).

[3] – سورة النبأ، الآية (١١).

[4] – سورة الإسراء ، الآية (١٢).

مجمعة للضوء وعاكسة له[1]؛ لتتم عملية الإبصار؛ كما أن العين هي المقوم الرئيس للتحرك وكسب العيش.

كذلك تضيف هذه الآية إلى أهمية تعاقب ضوء النهار مع ظلام الليل أنهما يُعْلِمان الإنسانَ كيفية التقويم؛ فيحسب عدد الأيام والشهور والسنين، بل حساب الأوقات عموما(وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ)؛ وهذا بلا شك يؤكد على أن الله قد خلق كل شيء بقدر دقيق، ومفصَّل القصد والنفع، وتبرز مدى أهميته بمدى اعتناء القرآن به وتكرار التعبير عنه خاصة بأساليب متنوعة؛ كاستعمال الاستفهام التقريري الذي لا يستعمل إلا فيما تتضح أبعاده وغاياته للمخاطَب؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]؛ فإن السمع لمناسب لليل السرمدي (أَفَلَا تَسْمَعُونَ)، وإن الإبصار لمناسب للنهار السرمدي (أَفَلَا تُبْصِرُونَ)، ولكن من رحمته تعالى أن جعل

---

[1] – تكتشف العيون الضوء وتحوله إلى نبضات كهربائية كيميائية في الخلايا العصبية . في الكائنات الحية العليا، تعتبر العين نظامًا بصريًا معقدًا يجمع الضوء من البيئة المحيطة، وينظم شدته من خلال غشاء، ويركزها من خلال تجميع قابل للتعديل من العدسات لتكوين صورة. مقال بعنوان(تشريح العين)، مترجم ومنشور على شبكية (ويكبيديا)، نقلا عن:

جي، كراوس ويليام بوكا– علم الأنسجة لطلاب الطب ، راتون ، فلوريدا: الناشرون العالميون. دون تاريخ.

J, Krause William Boca Histology for Medical Students, Raton, FL: Universal Publishers.

[2] – سورة القصص، الآيات(٧١، ٧٢، ٧٣).

حال الليل والنهار بما يتوافق مع لوازم الناس ويوازن بين حاستي السمع والإبصار (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، فهاهي الدلالة واضحة على قدرة الله تعالى وعظيم فضله على الإنسان؛ مما يمكن القول بأن واقع الليل والنهار بالنسبة للإنسان لخير دليل ملموس على قدرة الخالق ومدى إدارتهما على وجه محكم وحسابات دقيقة يتوقف عليها أمور كثيرة؛ يزداد عددها كلما بحثنا وتعمقنا في تتبع أثر تعاقب الليل والنهار وتأثيرهما في كل شيء؛ لِيتجلى دلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]؛ حيث يحويان الكثير من الدلائل التي إذا أدركتها العقول السليمة والقلوب النقية؛ فإنها –بلا شك– تسوقها إلى التقوى والانقياد لأوامر الله التي هي أعلى درجات الإيمان بعظيم قدرته ومخافة عذابه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[2].

٣- الجبال والماء والرياح.

يكرر القرآن الشيءَ المحمود؛ للتأكيد على أهميته وتَعَدّد وظائفه وعظيم نفعه للمخاطَب، كما هو الحاصل في(الجبال)، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا*وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[3]، ألهذا الكوكب الممتد أوتاد تمسكه حتى لا ينهار؟! هذا هو المعنى الواضح من أصل لفظة (وتد) الذي يغرس في الأرض؛ لعدم انهيار الخيمة من شتى التقلبات الجوية أو التهديدات الأخرى؛ خاصة وأن الأرض متحركة في مدارها؛ فكانت هذه الجبال الراسخات الشامخات الموزعة في كل أنحاء الأرض– لذا جُمعت ونكرت (أَوْتَادًا)- هي المقابل لحفر الأنهار والبحار وعموم الماء في الأرض؛ مما يحدث التوازن بين جسم

---

[1] – سورة آل عمران، الآية (١٩٠).

[2] – سورة يونس، الآية (٦).

[3] – سورة النبأ، الآيتان(٦، ٧).

الأرض الممتد للحفاظ على ثباتها أثناء تحركها في مدارها دون انحرافات أو انهيارات؛ وخاصة أن غالبية سطح الأرض يتكون من البحار والأنهار العميقتين؛ يؤكد هذا: غلبة ذكر الجبال في القرآن بالمصاحبة مع ذكر الأنهار والبحار؛ وإنّ كل ما في القرآن الكريم موضوع في موضعه لسببٍ؛ قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ﴾[1]، فلقد خلق الله الأرض بتخطيط متقن جعلها صالحة للمعيشة والاستقرار عليها؛ حيث خللها بالأنهار والبحار التي تحمل كافة الخيرات للإنسان وتمده بالطعام والشراب ولا يفسد بعضها بعضا، وهذا الاستقرار المعيشي يلزمه استقرار بنائي من حيث السكون والثبات لعدم انهياره؛ وهذا من وظيفة الجبال الراسخات[2] التي تمنع الأرض من الحركة المضطربة أو الانهيار في سطحها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3]، فعبر بـ(في) لبيان مدى تمكن الجبال من الأرض،

---

[1] – سورة النمل، الآية (٦١).

[2] – قد ظهرت نظريات جيولوجية كثيرة أهمها نظرية.: (mingler) وهو عالم جيولوجي ألماني تكلم عن الجبال، وقال إن لها امتدادات ضخمة تحت سطح الأرض، وإن هذه الامتدادات هي أكبر بكثير من الجزء البارز على الأرض، بل قالت نظريته: إنه لولا الجبال لما استقرت الأرض دقيقة واحدة بل ستميل بما فيها من أنهار وبحار ومحيطات وأشجار وستنتهي الحياة عليها إلى الأبد، حيث إن الجبال لها «شخصيتها» الذاتية عن الأرض، وإنها جاءت إلى الأرض لتؤدي مهمة خاصة؛ وهي تثبيت سطح الأرض الذي يمتد من السطح إلى الجزء الثاني باتجاه باطن الأرض بمقدار ٥٠ كيلومترا، وهذه المسافة تسمى بقشرة الأرض، وأشارت النظرية إلى أن الجبال تخترق هذه القشرة، وهذا مؤشر على قوة الجبال وحتى تغلغلها في سطح الأرض. ينظر: موقع جريد البيان الإلكترونية– مقال بعنوان: (لولا الجبال لمالت الأرض وانقلبت وانعدمت الحياة على سطحها)– ترجمة وإعداد/ أحمد سلطان– المنشور بتاريخ/١٩ أكتوبر ٢٠٠٦.

[3] –سورة النحل، الآية (١٥).

والفعل(تميد) يوحي بأن الأرض معلقة في الفلك؛ وقد خلق الله فيها الجبال الراسخات ليستقر توازنها ومسيرها؛ فـ(أن) بمعنى (لئلا)؛ لتوضيح أبرز مهام الجبال وأسباب وجودها في الأرض؛ لتحفظها من الانحراف عن مدارها؛ مما يشعر ساكنوها بالثبات على سطحها، والاستقرار في مساكنهم، وبسهولة الاهتداء على طرقاتهم سواء بعلامات الجبال أو امتدادات الأنهار.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾[1]، وكأن الجبال والأنهار متلازمان؛ جسم راسخ شامخ في علوه، وحفر واسع ممتد متشعب في كل أنحاء الأرض لأسفل؛ مما يحصل التوازن الموزع على سطح الأرض أثناء حركتها في مدارها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[2]؛ فهل تتحرك الجبال؟! هكذا يؤكد القرآن أن الجبال تتحرك ببطء، وهذه الحركة قد شبهها بحركة السحاب كما تظهر لأعيننا التي قد لا تشعر بحركته، فالأرض هي التي تتحرك وليست الجبال؛ ولكن ذكرت الجبال على سبيل المجاز المرسل لعلاقة (الجزئية)؛ وأُوثر ذكرها دون غيرها من مظاهر الأرض الأخرى لعدة أسباب، أولها: يتعلق بالرؤية(وَتَرَى) التي لا تتوافق مع امتداد الأرض، وتتوافق الرؤية في إحاطتها لأبعاد الجبل من حيث ارتفاعه الشامخ الذي يصل لألاف الأمتار، واتساع قاعدته التي تصل إلى مئات أو آلاف الأمتار، وعجيب نصبه الذي يتكون من صخور تصل إحداها لآلاف من الكيلو جرامات؛ وقد قال تعالى متعجبا من أمر كل من ينظر إلى الجبال دون أن يدرك عظيم قدرة من نصبها على

---

[1] – سورة المرسلات، الآية (٢٧).

[2] – سورة النمل، الآية (٨٨).

هذه الهيئة: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[1]. ثانيها: إن الجبال لَمن أبرز الأسباب في معايرة سرعة الأرض ودورانها سواء حول نفسها أو حول الشمس. ثالثها: إن الجبال تعد الأعمدة المثبتة لهذه الأرض وسط الكوارث الطبيعية والفلكية والتهديدات البيولوجية واتساع الرقعة المائية على سطح الأرض وفي باطنها[2]؛ لذا كرر القرآن كلمة(رواسي)تسع مرات بمعنى(الجبال)على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية؛ مما يبرز للمخاطب أبرز أسباب وجودها على سطح الأرض؛ وفي هذا تأكيد على أن الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه، وليس كما يزعم البعض بأن الجبال بلا فائدة؛ لذا حضت غالبية الآيات القرآنية التي تحدثت عن الجبال على التفكير والتدبر في أمرها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]. هذا بالإضافة إلى مناظرها الخلابة، وألوانها المتعددة، وصلابة صخورها التي تستخدم في كثير من الأغراض الإنسانية، وكل هذا –أيضا– يبرز مدى دقة الخالق في إدارة ملكه واتقانه

---

[1] – سورة الغاشية ، الآية (١٩).

[2] – تأتي أهمية الجبال في تثبيت الأرض، فالأرض عدا القشرة التي تمتد الى عمق نحو ٥٠ كيلومترا هي إما طبقات غازية، أو سائلة أي: معادن وأحجار منصهرة. وهذه الأنواع من المواد لا تبقى على حال؛ حيث تتحرك بصفة مستمرة وهذا التحرك المستمر يجعل الطبقة العليا التي تليها غير ثابتة –أيضا–، أي: إن قشرة الأرض تكون غير ثابتة وذلك بفعل الضغوط الكبيرة بل والهائلة التي تتعرض إليها من أسفل لذا جاء الجبال لتجعل الطبقة التي نعيش عليها طبقة مستقرة وثابتة حتى يتمكن الإنسان والحيوان والنبات من الاستمرار في البقاء؛ فلولا هذه الجبال لما بقيت ولا نشأت حياة على سطح الأرض. ينظر: موقع جريد البيان الإلكترونية– مقال بعنوان: (لولا الجبال لمالت الأرض وانقلبت وانعدمت الحياة على سطحها)– ترجمة وإعداد/ أحمد سلطان– المنشور بتاريخ/١٩ أكتوبر ٢٠٠٦.

[3] – سورة الرعد، الآية (٣).

لصنعته التي تتوافق اتفاقا كليا مع لوازم خلقه وإمكانياتهم(صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ).

** و(الماء) إما عذب أو مالح كما أوضح القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]؛ ففرق القرآن بين النوعين، فالأول: عذب متجدد في دورته للحفاظ على عذوبة طعمه؛ لذا سخره الله لغرض الشراب؛ فهو لازم لأي مخلوق حي، والآخر: شديد الملوحة للحفاظ عليه من التعفن، ويتفقان في اصطياد منهما الكثير من اللحوم المختلفة المتعددة في أشكالها ومذاقها كالأسماك والمحاريات والقشريات ... إلخ – لذا عبر عنها بـ(لَحْمًا طَرِيًّا)؛ لكونه العامل المشترك بين كل هذه الأصناف، ويُستخرج منهما الحلي(يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ)[2]، ومسخران لحمل الفلك الثقيلة المحملة بأغراض

---

[1] – سورة فاطر، الآية (١٢).

[2] – سورة الرحمن، الآية(٢٢)؛ وقد أثبت الواقع أن اللؤلؤ كما يُسْتَخْرَج أنواع معينة منه من البحر، يُسْتَخْرَج –أيضا– أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجَد اللآلئ في المياه العذبة في إنجلترا وإسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان...إلخ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة. ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس، الذي يُسْتَخْرَج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة، ويوجد الياقوت كذلك في الرواسب النهرية في موجوك بالقرب من بانالاس في بورما العليا، أما في سيام وفي سيلان فيوجد الياقوت غالبا في الرواسب النهرية، ومن الأحجار شبه الكريمة التي تُسْتَعْمَل في الزينة حجرُ التوباز، ويوجد في الرواسب النهرية في مواقعَ كثيرةٍ ومنتشرةٍ في البرازيل وروسيا (الأورال وسيبريا)، وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفرَ أو بُنّيًّا، والزيركون (circon) حَجَرٌ كريمٌ جذابٌ تتقارب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه الكريمة تُسْتَخْرَج من الرواسب النهرية."موقع (ملتقى ←←←

الإنسان دون معاناة منه في سيرانها، وما خلق الله ذلك إلا لرحمته بالإنسان ومحبةً فيه؛ لتوفير راحته وعذب شرابه وأشهى مطعمه؛ لعله يدرك مدى فضل الواهب ويشكره (لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

و(الماء) عموما مصدره الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ*أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ...﴾[2] بانتساب الماء إلى الأرض في الآيتين، ولم يُنسب إلى السماء أبدا، ولكنه ينزل من السماء؛ وفي هذا حكمة بليغة؛ فإن الماء العذب قابل للتعفن وتغيير الرائحة والطعم؛ لخلوه من النسبة الكافية من الأملاح الحافظة له؛ لذا لا يمكن للإنسان تخزينه؛ قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[3]، فكان من العمليات الربانية الطبيعية لتجدد الماء وحفظه، هو عملية التبخر في السماء من الماء الموزع على سطح الأرض الذي يزيد عن ثلثي إجمالي سطحها، ولولا هذه العملية ما صلح هذا الماء للشراب ولا للزراعة وما صلحت الحياة على الأرض؛ يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا*لِّنُحْىِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا

→→→

أهل التفسير) الإلكتروني– مقال بعنوان (تفسير قوله تعالى: "وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً ") – بقلم الأستاذ الدكتور/عبدالرحيم الشريف، (أستاذ التفسير وعلوم القرآن، جامعة الزرقاء / الأردن)– المنشور بتاريخ ٣٠ نوفمبر ٢٠١٤م.

[1] – سورة النازعات، الآيتان(٣٠، ٣١).

[2] – سورة هود، من الآية (٤٤).

[3] – سورة الحجر ، الآيتان(٢٢، ٢٣).

﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا* وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[1]؛ فلولا هذه العملية المفلترة للماء؛ ما صلح للزراعة ولا للشراب، لأنه سوف يحوي كثيرا من الشوائب ويحمل العديد من البكتريا والجراثيم المهلكة للحرث والنسل؛ لذا يوضح القرآن بـ(لام التعليل) سبب نزول ماء السماء لفعلين(لِّنُحْيِيَ، وَنُسْقِيَهُۥ)، ولاشك في أن هذين الفعلين يبرزان مدى أهمية هذه العملية لاستمرارية الحياة على الأرض.

وهذا (الماء) لا ينزل اعتباطا، بل بقدر معلوم على حسب الحاجة؛ هذا ما يوضحه دقة التعبير (بِقَدَرٍ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[2]؛ وإلا كان طوفانا لا يبقي شيئا من الأرض، وما أيسر ذلك على الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[3]، أو يغور في الأرض ولا يخرج منها، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[4]، لكن من رحمته تعالى بمخلوقاته بأنه ينزّل الماء إلى الأرض بقدر ما تحتمله وديانها، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[5] أي: بقدر احتمال الأودية واستيعابها من الماء على حسب عرضها وطولها وعمقها.

---

[1] – سورة الفرقان، الآيات(٤٨، ٤٩، ٥٠).

[2] – سورة المؤمنون ، الآية (١٨).

[3] – سورة العنكبوت، من الآية (١٤).

[4] – سورة الملك، الآية (٣٠).

[5] – سورة الرعد، من الآية (١٧).

ولا يفوت القرآن الإشارة إلى مصادر المياه العذبة الأخرى، وهي الخروج من باطن الأرض(المياه الجوفية)[١] التي لها خواص متباينة عن مياه الأنهار من حيث نسبة عناصرها وغناها بالأملاح المعدنية وأماكن تخزينها وجريانها؛ مما يحافظ عليها من التغيّر والتعفن، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ*وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٢]؛ فلِماء العيون ذات استعمالات ماء المطر؛ كما أوضح القرآن، والتعبير باللفظ(فَجَّر) للعيون؛ يبرز الدقة في تصوير هذه العملية وإخراج الماء من تحت الأرض إلى أعلاها؛ فقد يستلزم من القوة ما يحتاج إلى المتفجرات؛ لاسيما أن غالبية هذه العيون تخرج وسط الصخور والأحجار، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ...﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[٤]؛ وهذه الإحاطة لمصادر الماء تؤكد على أن القرآن جامع شامل دقيق في دلالاته، عميق في إيحاءاته؛ فمياه الأمطار هي المصدر الرئيس لتوفير الماء العذب على سطح الأرض وتوزيعها في كل أنحاء الأرض واستفادة غالبية المخلوقات منها؛ لذا غلب ذكرها في القرآن مقارنة بالمياه الجوفية.

---

[١] – تمثل المياه الجوفية نسبة(٣٠%) من مصادر المياه العذبة على سطح الأرض. موقع (موضوع) الإلكتروني– مقال بعنوان: (ما هي المياه الجوفية)– بقلم/حنين حجاب– المنشور بتاريخ٣مارس ٢٠٢٠م.

[٢] – سورة يس، الآيات(٣٣، ٣٤، ٣٥).

[٣] – سورة البقرة، من الآية (٦٠).

[٤] – سورة الإسراء، الآية (٩٠).

* وقد أوضحتْ بعض الآيات السابقة مدى رحمة الله بعباده في إرساله (الرياح) إلى الأرض، ودورها الضروري في عملية تجديد المياه العذبة وتطهيرها من البكتريا والشوائب بعد تبخيرها من بحار الأرض؛ لتتكثف في الفضاء مكونة للسحب؛ ليأتي دور (الرياح) في عملية توزيع المياه على كل أنحاء الأرض، لاسيما إلى الأراضي التي تخلو من مصادر المياه العذبة، قال تعالى معبرا عن ذلك في كثير من آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، والتعبير بهذا اللفظ الاستعاري(يُرْسِلُ)؛ يبرز حقيقة الصورة التي يبعث الله عليها الرياح، فالراسل هو (الله)؛ مما يعجز عن تحديد موطن الرياح ومحل تكوينها، والرسول هو (الرياح)، ولابد للرسول من وجهة محددة ببلد معين يبلغه برسالته (السحاب الثقال المهيأ للمطر)؛ فاكتملت أركان الرسالة بـ(بلد) التي جاءت نكرة لتفيد عموم الأرض، إشارة إلى وصول هذا الرسول لكل مكان، وإن التعبير بالفعل(سقنا) يوضح أن هذه الرياح لا تسير اعتباطا، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[2]، فإن التعبير بالفعل (نَسُوقُ) يبرز أن الرياح تسير على حسب خط سير مسبقة التكليف به؛ يكاد يكون موزعا على حسب توفير الأرض نباتها؛ مراعاة لمدى حاجة الإنسان والأنعام منه؛ وهذا ما يعرف بـ(الرياح الموسمية) التي لها اتجاهات محددة وأزمنة معينة مرتبطة بالفصول الأربعة ونوعية النباتات التي تزرع فيها، وهذا

---

[1] – سورة الأعراف، الآية(٥٧) .

[2] – سورة السجدة، الآية (٢٧).

بخلاف(الرياح الدائمة)[1] التي تتوقف عليها الملاحة العالمية وأمور أخرى ضرورية، قال تعالى عنها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ*إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

وقد أرسل الله (الرياح) للقيام بمهام أخرى لا تقل أهميتها عن السابقة في استمرارية الحياة على الأرض، وهي نقل اللقاح بين الزروع، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ

---

[1]–هي الرياح التي تهب من منطقتي الضغط المرتفع فيما وراء المدارين إلى منطقة الضغط المنخفض وبحيث تكون مُنتظمة طوال العام، وقد سميت بالرياح التجارية؛ لأنها تساهم في حركة التجارة البحرية وتقوم بدفع السفن الشراعية المستخدمة في التجارة. وفي العموم تعد الرياح من أحد عناصر المناخ التي تحدد الحياة على سطح كوكب الأرض، للأسباب الآتية:

أ– تحافظ الرياح على درجة الحرارة الخاصة بسطح الأرض؛ فكما هو معروف عندما يسخن الهواء القريب من سطح الأرض ينتج عن ذلك أن يخف الوزن الخاص به، و بالتالي يرتفع للأعلى فيحل مكان الهواء البارد، و بالتالي يخفف؛ إذ أنه لولا هذه الحركة لزادت درجة الحرارة الخاصة بالأرض عاماً بعد عام لكي تصبح في النهاية عبارة عن محرقة لكل من يقترب منها من الكائنات الحية، و بالتالي تنعدم الحياة على سطح الأرض.

ب– الرياح تعمل على تحريك السفن في المحيطات أو البحار؛ وذلك يرجع إلى أهمية الهواء من أجل إتمام عملية الاحتراق، التي يعتمد عليها هذا الوقود المستخدم في السفن.

جـ– تفيد الرياح بصورة رئيسة في عملية نزول المطر؛ و ذلك يرجع إلى أنه عندما ترتفع الرياح الدافئة إلى طبقة الجو العليا الباردة فإنها تتكاثف، و بالتالي يتساقط المطر على سطح الأرض. ينظر: موقع (مرسال) الإلكتروني– مقال بعنوان: (ما هي فوائد الرياح وأنواعها)– بقلم /سحر محمد– المنشور بتاريخ ١٧فبراير ٢٠٢١.

[2] – سورة الشورى، الآيتان(٣٢، ٣٣).

﴿لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[1]، فأتت (لَوَٰقِحَ)[2] على جمع التكسير؛ للإيحاء بمدى عظم هذه العملية وانتشارها وتكاثرها بصورة تعجز أي قوة أن تقوم بها خاصة في هذا الزمن القياسي، ونكرت(لَوَٰقِحَ)؛ لعدم الإيحاء بالاختصاص؛ مما يدل على تنوع مهام الرياح؛ وهذا ما يوضحه مجمل دلالة الآية بالإشارة إلى مهمة الرياح في عملية إنزال الماء الطاهر من السماء، وللدلالة –أيضا– على تنوع الفاعل في عملية اللقاح ما بين الرياح والحشرات والإنسان التي لولاها ما أنبتت الثمار في كل النباتات التي هي إما ذكور أو إناث؛ كما أكد القرآن الكريم في أكثر من آية؛ قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ...﴾[4].

ومما سبق في القول عن (الرياح)؛ يتبين أن لها مهاما كثيرة تتوقف على أنواعها المتعددة المتفاوتة من حيث الاستدامة والانقطاع ودرجات سرعاتها، الأمر الذي قد يُعجز الخبير باللغة عن اختيار اللفظ المعبر عن طبيعة وظيفة الرياح تعبيرا جامعا مانعا كما عبر القرآن بهذا اللفظ الدقيق لاسيما الإتيان به على صيغة (المصدر) في

---

[1] – سورة الحجر، الآية (٢٢).

[2] – الرياح عامل رئيس في القيام بنقل مادة اللقاح فيما بين النباتات؛ حيث أنه كما هو معروف أن ذكور النباتات تنتج مادة اللقاح المسئولة عن تلقيح النبات الأنثى؛ إذ لولا وجود الرياح لبقيت تلك المادة الخاصة باللقاح عند النبات الذكر؛ وبالتالي تموت النباتات، و يندثر كل ما يعتمد عليها من كائنات حية على سطح الأرض. ينظر: موقع (مرسال) الإلكتروني– مقال بعنوان: (ما هي فوائد الرياح وأنواعها)– بقلم /سحر محمد– المنشور بتاريخ ١٧فبراير ٢٠٢١.

[3] – سورة الذاريات، الآية (٤٩).

[4] – سورة الرعد من الآية (٣).

قول تعالى: (...وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]؛ فإن التعبير بالمصدر(تَصْرِيفِ)؛ يبرز كل هذا وأكثر من حيث: الاستدامة في الحدث؛ والتفاوت في الكم، والتعدد في الوظيفة، والتجاوز في المكان، والإطلاق والتقييد؛ مما يلزم التصريف المستمر للأصل الواحد إلى أصول متعددة ومتباينة على حسب مهام كل منها وزمانها؛ سواء للرياح الدائمة أو الموسمية أو غيرهما كالعواصف والأعاصير؛ وهذا بخلاف (السحاب) الذي له مسار محدد؛ لذا عُبر عنه بـ(ٱلْمُسَخَّرِ) بين السماء والأرض؛ وأوتي على صيغة (اسم المفعول)؛ للدلالة على التزام السحاب بمسار واحد لا يتجاوزه(بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ).

* وبالتأمل في الأفعال القرآنية التي عُبر بها في هذا المبحث؛ يُلاحظ تعددها وتنوعها على حسب دلالتها في سياقاتها المختلفة؛ وقد أشرتُ إلى جماليات التعبير القرآني بها في مواضعها؛ لصعوبة الجمع بينها في معجم واحد؛ ولكن يجمعها موضوع واحد، وهو (الدلالة على طلاقة قدرة الله في تسيير أمور ملكه، ومدى التمكن من هذه الأفعال)؛ فتمضي ملايين السنين دون أن تنفذ أو تنقص أو يصيبها الوهن سواء في (التقدير، أو التدبير، أو التفصيل، أو التسخير، أو الإرسال، أو التصريف، أو الجعل، أو السقيا، أو الطعام ...إلخ) .

[1] – سورة البقرة ، من الآية (١٦٤).

المبحث الثالث: -

مــن قدرة الله على العلم والإحاطة[١]

تلك الإدارة المُحكمة لكافة أمور هذا الخلق العظيم؛ تتطلب اطّلاع الخالق على أحوال كل مخلوق في هذا الملكوت الممتد؛ وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَـقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا**﴾[٢]؛ فإن قدرة الله تعالى تتضح جلية في تصريف أمور هذا الملكوت على الوجه الذي يؤكد بأنه–جل في علاه– محيط بكافة أحواله وعالم بكل احتياجاته؛ وهذا ما يبرزه قوله تعالى: (**لِتَعْلَمُـوٓاْ**)بلام السببية؛ أي: إذا تدبرتم حال هذا الملكوت في تصريف أموره؛ لتيقنتم من أن هذا ليس من قبيل الصدفة والطبيعة –كما يدَّعي الملحدون–؛ ولما كان هذا الأمر محل جدال وتشكيك على امتداد الخلق؛ فبنى القرآن أسلوبَه على التأكيد بعد (العلم) الذي هو نقيض الشك، (**لِتَعْلَمُـوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُـلِّ شَىْءٍ عِلْمًـا**)؛ فتدبير أمر كل مخلوق يُعلِمُ شاهدَه العاقل أن قدرة الله واضحة في تصريف أمر خلقه تصريفا محكما، ومتوافقا مع حالته– لذا جاءت (**قَدِيرٌ**) منكرة على صيغة المبالغة للشمول والعموم لكل الخلق–؛ وهذا بالفعل يؤكد على إحاطة علم الله بأحوال كل مخلوق ومدى احتياجاته من طعام وشراب وصحة وفَرَجٍ...إلخ؛ فصوّر العلم المعنوي بما هو مادي محيط بالشيء من كافة جوانبه؛ فلا يخرج عن إطاره؛ لذا عبر بالفعل الماضي (أَحَاطَ) المحقق بـ(**قَدْ**)، وبالمصدر (**عِلْمًـا**)؛

---

[١]– إن من إدارة الله لملكه هو الإحاطة بملكوته، والعلم بكافة شئون خلقه، وقد أُفرد هذا المبحث؛ لكثرة الآيات القرآنية الواردة فيه؛ فأطالت مبحثه، وعدّدت تفريعاته؛ مما أُوثر استقلاليته.

[٢] – سورة الطلاق، الآية (١٢).

حيث إن البناء قد شُيد تشييدا محكما في الأزل؛ مما لا يَدَع مجالا للتغيير والإفلات مستقبلا؛ وفي هذا إشارة إلى أن علم الله سابق أمره، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[1].

ولقد اعتنى القرآن بالدلالة على علم الله اعتناء واسعا؛ يتجلى ذلك في كثرة الآيات التي تناولته، واتسمت بكثافة تأكيداتها، وجلاء معانيها، ودقة صورها وأمثالها وعميق دلالاتهما؛ مما أتي التعبير في كلٍ واضحا جامعا، مانعا لكل من أراد التشكيك في علم الله وإحاطته، يقول تعالى: (...وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[2]؛ تؤكد الآية بالنفي المطلق بـ(مَا) التي تفيد نفي الحالية في الفعل المضارع(يَعۡزُبُ) الذي يفيد الاستمرارية والتجدد؛ تأكيدا على أن الله لا يخفى عليه كل أحوال الأشياء، وليس حال الشيء بصورته الظاهرة فحسب، بل أصغر عنصر يدخل في تكوين هذا الشيء الذي يُعرف في علوم الطبيعة بالذرة[3] التي تدخل في تكوين كل الأجسام المادية، وهي أقل جسيم يميز

---

[1] – سورة الحديد، الآية (٢٢).

[2] – سورة يونس، من الآية (٦١).

[3] – ينص نموذج العالم(دالتون) على أن جميع المواد تتكون من أجسام صغيرة جدا وغير قابلة للتجزئة وهي الذرات، وقال أن الذرة عبارة عن جسم دائري مضغوط لا يمكن اختراقه بأي وسيلة. وقدم(طومسون)النموذج الخاص به في تركيب الذَّرة الذي ينص النموذج على أن الذَّرة عبارة عن كرة مصمتة موجبة الشحنة يتخللها الإلكترونات السالبة، ويكون مجموع هذه الشحنات الموجبة والسالبة هو تعادل الذَّرة وهنا قال (طومسون) أن الذَّرة جسيم مستقر، وإذا تغير موضع الإلكترون لأي سبب فسرعان ما يعود إلى مكانه مرة أخرى .

وقدم (رذرفورد)نموذجه الذي ينص على أن الذرة تشبه المجموعة الشمسية، الشمس هي النواة والكواكب هم الإلكترونات وتدور الإلكترونات على مسافات متباعدة من النواة، وبم أن حجم هذه ←←←

المواد عن بعضها؛ وإن كانت هي ليست الأصغر فيه، وهذا ما يوضحه التعبير القرآني بحرف الجر (مِن) التي تفيد (الجزئية)؛ أي: لا يخفى على الله من الشيء حال أصغر ما يمكن تقسيمه إليه؛ حيث لا يمكن تحليله لأصغر من الذرة، ومن دقة التعبير القرآني وعمق دلالاته؛ أنه لا يمكن لأقل من الذرة أن تكون شيئا؛ فعبر بها حين الإحاطة بكل الأشياء الموجودة في الأرض والسماء؛ ولكن علم الله في المطلق لا يمكن أن يحدد بالذرة؛ فهو لا يخفى عليه غائبة- ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

→→→

النواة صغير مقارنة بحجم الذرة إذا الذَّرة معظمها فراغ، كما تتركز كتلة الذرة وشحنتها الموجبة في النواة التي تتركز في منتصف الذرة، وتتعادل شحنة هذه النواة مع شحنة الإلكترونات السالبة التي تدور في الذرة، وقال أن هذه الإلكترونات تقع بين قوتين وهم قوة جذب النواة للإلكترونات وقوة الطرد المركزي، وبالطبع غير (رذرفورد) نظرة العالم عن الذرة.

ثم قدم العالم (بور) النموذج الخاص به في تفسير الذرة، وكان ينص على أربعة نقاط وهم، الإلكترونات تدور حول النواة في مستويات محددة وثابتة، مستويات الطاقة تتراوح بين الرقم١ و٧، الفراغ الموجود بين المدارات يحرم على الإلكترونات التواجد فيه، لا يفقد الإلكترون أي طاقة أثناء تواجده في مستوى الطاقة الخاص به.

وبالإبحار في عالم الذرة سنجد العديد والعديد من الأبواب التي يشرح كل منها في مئات الأبحاث، كالانشطار الذري والتكافؤ والطرق التي يمكننا من خلالها تحديد مكان وسرعة الإلكترون، والتي كانت مجال تنافس بين العلماء إلى أن ظهر (هايزنبرج) وقام بتقديم مبدأ عدم التأكد والذي يخبرنا باستحالة معرفة مكان وتاريخ الذَّرة في وقت واحد، ثم ظهور (شرودنجر) ومعادلته الشهيرة التي يمكنها التنبؤ بمكان وسرعة الإلكترون، وقد ساهمت معرفتنا عن الذرة الآن كثيرا في تطور العديد من المجالات العلمية والصناعية. ينظر: موقع (تسعة) الإلكتروني- مقال بعنوان: (كيف تكوِّن الذرة كل الأجسام المادية ومتى اكتشفها العلماء)- بقلم/ محمد جادالله- المنشور بتاريخ/ ١٥فبراير ٢٠١٩م.

مُّبِينٍ﴾[1]-، سواء أكانت أصغر من الذرة أو أكبر منها؛ وكل مدوَّن في كتاب مبين- يوضح في موضعه- غير قابل للنسيان أو الخطأ؛ مؤكدا على ذلك بأسلوب الحصر بـ(النفي، وإلا)؛ الذي هو أقوى ألوان التأكيد على الإطلاق لما يجهله المخاطب (**لَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**).

ولم يكتف القرآن بالتأكيد بهذه الآية مرة واحدة؛ فأتى بالتكرار اللفظي لها؛ ليعزز مدلولها ويقرره في نفوس المخاطبين وأذهانهم، قال تعالى: (**...لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾[2]، ولكن في هذه الآية قد أتى النفي للفعل المضارع(**يَعْزُبُ**) بـ(لَا) التي تُحَمِّلُه معنى الاستقبال؛ لأنها جاءت في سياق الرد على الذين يكذبون بمجيء الساعة والحساب مستقبلا، بخلاف الآية الأولى التي جاءت في سياق إخبار النبي وأصحابه بأن الله مطلع على كل أحوالهم، وقُدمت الأرض في الآية الأولى؛ لأن حال النبي ومن معه في الأرض، وقدمت السماوات في الثانية؛ لأن أمر الساعة في السماء؛ وهذا يبرز مدى دقة القرآن ومراعاة سياقه لأدق الملامح والتفاصيل.

وبالتمعن في الآيات القرآنية التي وردت بها لفظة(ذرة) يتضح أن دلالتها تتضمن الأعمال المعنوية-أيضا-، قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ*فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ*وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**﴾[3]؛ فإن أسلوب الشرط لَيبرز منتهى الدقة والإحكام في الإحاطة بكافة الأعمال، والحزم الشديد في الحساب؛ ومعنى: كون(الذرة) معيارا للأعمال المعنوية؛ فذلك يوحي بأن الله تعالى

---

[1] – سورة النمل، الآية (٧٥).

[2] – سورة سبأ من الآية(٣).

[3] – سورة الزلزلة، الآيات(٦، ٧، ٨).

سيحيل هذه الأعمال إلى أوزان مادية–هو أعلم بكيفيتها–؛ على حسب درجات كل عمل[١].

ومن جماليات التعبير القرآني في الخطاب؛ مراعاة تغير الأزمان وما يعتري المجتمعات من تغيّرٍ للمفاهيم وتطور للعلوم؛ مما تتفاوت أحوال المخاطَبين؛ فإن (الذرة) معلومة الأبعاد في العصور الحديثة، ومضرب الأمثال فيها للأشياء الدقيقة، يقابلها في العصور القديمة(حبة الخردل) التي ظلت على امتدادها يضرب بها المثل في صغر الحجم[٢]؛ لذا جعلها القرآن مثالا–أيضا– للتوضيح والتأكيد على إحاطة علم الله لأصغر

---

١ – قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ سورة الأنعام، الآية(١٣٢)، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ* وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ سورة الأعراف، الآيتان(٨، ٩) وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾سورة الأحقاف، الآية (١٩).

٢ – "فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لِعَدَمِ إِيمَانِكُمْ. فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ". العهد الجديد –إنجيل (متى)،الإصحاح(١٧)، الجملة(٢٠).

وقال –صلى الله عليه وسلم– (لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ، ولا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن كِبْرِياءَ). صحيح مسلم– كتاب الإيمان– باب تحريم الكبر وبيانه.

ويعود استخدام بذور الخردل كتوابلٍ إلى العصور القديمة، فاستخدامه موصوف في النصوص الهندية والسومرية التي يعود تاريخها إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد، كما ورد ذكر نبات الخردل بشكلٍ متكررٍ في الكتابات اليونانية والرومانية. موقع محتويات الإلكتروني– مقال بعنوان:(نبات يضرب به المثل في حجمه الصغير)– بقلم/ بشرى ديوب، المنشور بتاريخ١٦يناير٢٠٢٢م .

الأعمال والأشياء، يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1]، فقد استعمل القرآن(حبة الخردل)؛ المعلوم للمخاطب مدى صغرها مثالًا؛ للتأكيد به على إحاطة علم الله لأدق الأعمال وأوهنها، لعله بهذا الإدراك التام للمعنى، يكون أشد حرصا على الاتعاظ والحذر في التنفيذ، ولا يتهاون في فعل الصغائر؛ وهذا ما يشير إليه بناء المثل على أسلوب الشرط؛ مما يؤكد على شدة الحزم والإحكام في الإحاطة بكافة الأعمال والمحاسبة عليها.

ومما يؤكد هذا–أيضا– أن(حبة الخردل) قد جاءت محور المثل الذي ضربه (لقمان الحكيم)لابنه؛ في تبيانه لمدى قدرة الله تعالى على العلم والإحاطة بكافة الأشياء والأعمال، يقول تعالى على لسان (لقمان الحكيم): ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[2]؛ فأتى المقدار هنا بحبة واحدة من نبات (الخردل) الملحوظ دقتها لعين الإنسان، وجاء التصوير –أيضا– متوافقا مع قدرات التخيل لدى المخاطب؛ حيث يمكنه تخيل حبة الخردل بين شقوق الصخور الصلبة أو في السماوات العالية أو في الأرض الممتدة؛ وإتيان الله بها نابع من قوة إيمان (لقمان)؛ الذي يؤكده بناء الصورة على أسلوب الشرط الذي يتسم بالقوة والحزم في دلالاته؛ حيث يغلب استعمال (إن)الشرطية في المسائل الافتراضية التي يتيقن المتكلم فيها من تحقق جواب الشرط إذا تحقق فعله

---

[1] – سورة الأنبياء، الآية (٤٧).

[2] – سورة لقمان، الآية (١٦).

المحتمل؛ لاسيما إذا عُلّق تحقق الجواب على الله تعالى[١]، ومعنى المثل: إنه إذا احتمل لشيء ضئيل جدا الوجود في أي مكان في ملكوت الله؛ فهذا يعني أن الله عالم به وسوف يأتي به لا محالة؛ وهذا هو منتهى اللطف والخبرة بأدق الأشياء وأماكنها وكيفية الإتيان بها؛ لذا جاءت الصفتان (لَطِيفٌ خَبِيرٌ) منكرتين؛ مما تفيدان العموم والشمول لكل الأشياء بشتى أحوالها وأحجامها وأماكنها وكُنْهها وزمانها .

* وغالبا ما يتْبع القرآن تأكيده على علم الله وإحاطته لكافة الأشياء والأعمال بالتأكيد على أنه منسوخ في (كتاب مبين)؛ وهذا ليس من قبيل تذكير الخالق بما قد يفوته – حاشا لله-(...لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ... ﴾[٢]، (...لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[٣]؛ بل لأمور عديدة قد بينها القرآن؛ منها أن الكتاب هو أفضل سند يحفظ الحقوق، وهو حجة على المَدين[٤]؛ لذا كان من أبرز مهام الكتاب رصد كافة أعمال العبد، ليكون حَكَمُه يوم القيامة وحجة عليه؛ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا*ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٥]، وهذا الكتاب هو حُكْم الله يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى

---

١ – قال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ...﴾ . سورة التغابن، من الآية (١٨).

٢ – سورة البقرة، من الآية (٢٥٥)

٣ – سورة طه، من الآية (٥٢)

٤ – قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ...﴾. سورة البقرة، من الآية (٢٨٢).

٥ – سورة الإسراء، الآيتان(١٣، ١٤).

ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1]؛ حيث إن الله لا يحكم بذاته، لأنه–جل في علاه– لا ينزل من قدسيته، وكيف يسعد الكافر برؤيته أو يطرب بصوته أو يرقى بجواره؟![2] وقد وعد الذين أحسنوا وحدهم نظرة منه[3]؛ ومن ثمّ فإن من أبرز مهام (الكتاب) هو توفية الحساب بعد إحصائه لكل كبيرة وصغيرة عملها المكلَف على امتداد حياته، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4]، ومن ثم يمكن القول بأن (الكتاب) المقترن بعلم الله في القرآن بمعناه العام أو بنسخته العامة(الأصلية): هو العلم المرئي المنسوخ من علم الله غير المرئي؛ يؤكد ذلك أن الأساليب التي استعملها القرآن في التأكيد على إحاطة علم الله لكل شيء هي ذاتها التي استعملها في تأكيده على إحاطة هذا الكتاب لكل شيء، ولما كان علم الله سابق أمره كان كتابه– جل في علاه– قد سبق نسخه قبل أمر الخلق؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾[5]؛ وقد بين القرآن

---

[1] – سورة الحج، الآيتان (٦٩، ٧٠).

[2] – قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾. سورة المطففين، الآية(١٥).

[3] – قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ *إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. سورة القيامة، الآيتان(٢٢، ٢٣)، وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– "إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدُكُمْ؟ فيَقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ : فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ. وفي رواية: وزادَ ثُمَّ تَلا هذِه الآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. سورة يونس: من الآية(٢٦). صحيح مسلم – كتاب الإيمان– باب(إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى).

[4] – سورة الكهف، الآية (٤٩).

[5] – سورة التوبة، من الآية(٣٦).

تخصيص هذه النسخة لله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]؛ ومن هذه النسخة(أم الكتاب) يُنسخ كتاب الموت والأرزاق والكتب السماوية المشرِّعة في الأرض...إلخ على حسب عنوانها ووظيفتها، ومهما تعرضت هذه النسخ الفرعية للإثبات أو المحو، فإنها في النهاية لا تخرج عما في كتاب الله المحفوظ؛ تأكيدا على أن علمه- جل جلاله- سابق أمره قبل إيجاده، ومحيط لكل شيء مهما كان خفيا. (والله أعلم).

* وقد اعتنى القرآن الكريم بإيضاح مدى علم الله وإحاطته من خلال الاهتمام بأمور بعينها، لما في العلم بها الدلالة المؤكدة على قدرة الله المطلقة؛ ولأسباب أخرى يدركها كل ذي عقل رشيد وقلب سليم، من هذه الأمور:

١-(العلم بالغيب)، والغيب قسمان[2]، غيب نسبي: وهو ما غاب عنك ولكن يعلمه غيرك من البشر[3]، وإن إعلام القرآن به بعد انعدام شاهده؛ لفيه من الإعجاز والتأكيد على علم الله وإحاطته لكل ما فات وانقضى؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ*قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[4]؛ ومن ثمّ تضمّن القرآن كثيرا من أخبار ما قد سبق؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[5]، فيخبر الله نبيه- صلى الله عليه وسلم- بما انقطع خبره عن (مريم) -عليها السلام- ، حين استهم

---

[1] - سورة الرعد، الآية (٣٩).

[2] - الغيب- الشيخ/ محمد متولي (الشعراوي) - مطابع أخبار اليوم- صـ١٠.

[3] - المصدر السابق- صـ١٦.

[4] - سورة طه، الآيتان(٥١، ٥٢).

[5] - سورة آل عمران، الآية (٤٤).

بنو اسرائيل بأقلامهم أيهم يحظى بكفالتها–عليها السلام–؛ وهذا ما حظى به سيدنا (زكريا)–عليه السلام–، كما أخبرنا القرآن–أيضا–.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۛ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وذلك في الإخبار بنبأ سيدنا(نوح)– عليه السلام– وكيف نجاه الله من قومه الظالمين، وموقف ابنه منه.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[2]، لقد أنبأ الله رسوله–صلى الله عليه وسلم– بما اتفق عليه أخوة (يوسف) حين أجمعوا أمرهم على التخلص من أخيهم(يوسف)–عليه السلام–؛ ويلاحظ أن (مِنْ) تسبق(أَنۢبَآء) في الآيات السابقة؛ للدلالة على التقليل والدقة في التعبير، أي: ما أوحينا إليك إلا القليل من هذه الأنباء الغائبة عنك، ولاشك في أن إخبار القرآن بما قد انقطع خبره منذ آلاف السنين؛ لدليل قاطع على أن الله محيط بكل ما مضى، وإن الغيب النسبي محدد بما قد وقع حدثه وانقضى أمره.

أما الغيب المطلق: فهو ما لا يعلمه إلا الله[3] على امتداد الأزمان؛ وإن لفيه من الدلالة الإعجازية على طلاقة قدرة الله وإحاطة علمه لكل مقاليد السماوات والأرض، وعنه يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

---

[1] – سورة هود ، الآية (٤٩).

[2] – سورة يوسف، الآية(١٠٢).

[3] – الغيب– الشيخ/ محمد متولي (الشعراوي)– صـ١٠.

مُّبِينٍ﴾[1]؛ فإن هذه الآية تجمع بين نوعين من ألوان القصر في إسناد الغيب المطلق لله؛ فجيء أولا بـ(التقديم) في الدلالة على حصر هذا الغيب وجمعه عند الله(وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ)، ثم أُتبع بـ(النفي وإلا) للدلالة على قَصْر العلم به على الله وحده، ونفيه عمن سواه (لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ)؛ وتلك القوة في التأكيد؛ تبرز مدى انفراد الله بعلم الغيب، وأنه المتصرف الأوحد فيه.

وتأتي الصورة التي بنيت عليها هذه الدلالة موضحة لمنهج الخالق–جل في علاه– في التعامل مع هذا الغيب، وذلك من خلال اللفظ المستعار(مَفَاتِح)من الخزائن؛ مما يبرز مدى الإحكام والحيطة في التعامل مع هذا العلم؛ لأن المفاتيح تدل على أن الخزائن مغلقة على ما فيها من الأمور المهمة، ولا تفتح إلا لحاجة(السبب)؛ لذا قد تكون لفظة (مَفَاتِح) مجاز مرسل علاقته (السببية)؛ حيث ذكر السبب(المفاتيح) وأراد المسبب (ما في الخزائن من أمور الغيب)؛ للدلالة على أن هذا الغيب يُصرّف لأسباب كما في الرزق والمرض والموت والشفاء وكل ما يتعلق بتدبير الأمر وتصريفه على الوجه الطبيعي الذي يجعل صاحب الحاجة لا يتعجب من النتيجة، وإن أبرز ما يدخل في حيز هذه العلم(الغيب المطلق) هو كل ما يجري مستقبلا؛ لذا جاءت الأفعال في هذه الآية كلها مبنية على المضارعة؛ وقد أحاطت بكل كبيرة وصغيرة في مشهد تصويري مثل بألطف الأشياء وأخفاها؛ للدلالة على مدى علم الله ودقة إحاطته بكل شيء يقع ولو استخفت به الأنظار، وقد نُسخ هذا العلم مسبقا في كتاب لا يضل ولا ينسى؛ مؤكدا على هذا بأسلوب الحصر والقصر بـ(النفي وإلا) (لَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)؛ مما يبين كذب كل متشكك أو متوهم بمشاركة الله في هذا العلم.

---

[1] – سورة الأنعام ، الآية (٥٩).

والعلم بالغيب المطلق فيه دلالات مؤكدة على عظم قدرة الإله؛ ومن ثمّ فإن علم المخلوقات به أو ببعضه يكسبهم بعضا من ملامح هذه القدرة، لعل أبرزها ما يعينهم على توخي المصائب، والإكثار من الخير، والتحايل على القدر؛ قال تعالى: (...**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[1]؛ فتستعمل(لو)الشرطية لإفادة عدم تحقق الجواب؛ لامتناع تحقق الشرط، بمعنى: إنه لا يمكن للإنسان اختيار قدره، لأنه لا يعلم الغيب[2].

وقد أخبر القرآن عن علم الله ببعض الأمور الغيبية غيبا مطلقا، واعتنى بتكثيف التأكيد عليها، وقد تفاوت أسلوب حصرها وقصر العلم بها على الله حسب ما سيمنحه للإنسان من العلم بها، وهو بالقدر الذي تستقيم به الحياة على الأرض، ومنها:

١– العلم بالساعة، والعلم بما في الأرحام، وتقدير الرزق، والموت، وهذا كله قد جُمع في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[3]، فلقد جمعت هذه الآية عددا من الأمور الغيبية التي يحيط علم الله بها إحاطة دقيقة زمانا ومكانا وقدْرا وحالا؛ وقد تفاوت أسلوب الدلالة على كل واحدة منها؛ حسبما سيتيح

---

[1] – سورة الأعراف، من الآية (١٨٨).

[2] – وقد يطلع الله بعض رسله على بعض الأمور الغيبية لغايات أبرزها: إثبات الإعجاز لرسله حتى يصدقهم أقوامهم، قال تعالى: ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا*إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا**﴾. سورة الجن، الآيتان(٢٦، ٢٧).

[3] – سورة لقمان، الآية (٣٤)

الخالق لمخلوقه من العلم بها، لكن لن تتجاوز علوم البشر حدود ما انفرد الله بعلمه الذي وضحه القرآن منذ نزوله من قبل ألف وأربعمائة سنة، وهي كالآتي.

أ- (العلم بالساعة)، وقد بينت الآية أن العلم بموعد قيام الساعة مقصور على الله، يؤكد تلك الدلالة (إِنَّ) وأسلوب الحصر بالتقديم (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ)، أي إن العلم بالساعة عند الله وحده، وقد تكررت الآيات القرآنية المؤكدة على ذلك، وفي هذا التكرار زيادة في التقرير والتوضيح، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]؛ فلم يستعمل القرآن هذا العدد من أساليب القصر كما جاء في هذه الآية، وهو أربع مرات، منوعا بين أقواهما؛ للتوضيح والتأكيد على انفراد الله بكل ما يتعلق بميعاد قيام الساعة، فبدأها بالدلالة على حصر كل العلم بها لله وحده بقوله تعالى:(إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ)، وكانت هذه الآية كافية للإيحاء بأن كل ما يتعلق بها ويتصل بأجلها من علم، هو محصور لدى الخالق، لكن أُتبع هذا القصر بآخر ينفي إظهار العلم بوقتها لغير الله، في قوله تعالى: (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ)؛ لزيادة التأكيد على أنه تعالى لن يُطلع أحدا على وقتها حقيقة أو مجازا، ثم جاءت جملة ثالثة في ذات الآية بذات أسلوب القصر (لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ)؛ مما ينفي حدوث أسباب تؤدي إلى قيامها ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [2]، ثم اختتمها بذات أسلوب القصر الأول: (إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ)، وإن دل على هذا فإنما يدل

---

[1] – سورة الأعراف، الآية (١٨٧).

[2] – سورة النحل، الآية (٧٧).

على أن العلم بميعاد الساعة لن يعلمه إلا الله، مهما ادعى المنجمون وتحايل المدَّعون واجتهد المتفلسفون؛ وليعلم العقلاء والمؤمنون.

ب– (العلم بما في الأرحام)، والأصل: هو خلق الله لما في الأرحام؛ ومن ثمّ يكون الخالق عليمًا بما خلق فيها، ولكن لماذا عبر القرآن بالفعل (يعلم) وليس (يخلق)؟! للدلالة على أن النطفة سبب غير كافٍ لخلق الأجنة في الأرحام؛ بدليل أن الرحم قد يستقبل من النُطَف التي تحمل ملايين الحيوانات المنوية، والرحم يتكون به من البويضات مالا يقدّر عددها بالتناوب، وفي كثير من مرات الالتقاء بين الحيوان المنوي والبويضة لا يحمل الرحم الصحيح، وقد يحمل العقيم!، وإن علم الله يسبق خروج هذه النطفة من الرجل إلى رحم المرأة من حيث تحديد أي حيوان منوي منها يقوم بالتخصيب، ونوع جنسه، وأي بويضة ستخصب وتستكمل رحلة التكوين، ومتى يُوضع الجنين سواء اكتمل نموه أو سقط أثناء الحمل به، وما هي ملامحه التي سوف يتميز بها عن بقية جنسه؛﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]؛ لذا أتى التعبير بالفعل المضارع(يعلم) إشارة إلى حقيقة الرحم وكثرة تقلب أحواله التي لا يعلمها إلا الله، ولو عبر القرآن بالفعل (خلق)؛ فهذا يعني كمال خلق الله واكتماله؛ فلا يصيبه سقوط أو نقصان؛ لذا لم يستعمل القرآن مادة(خلق) مع الرحم أبدا.

جـ– (عِلم النفس برزقها)، وقد استعمل القرآن التأكيد بأسلوب النفي المطلق لعلم النفس بمقدار رزقها مستقبلا؛ مهما بلغت من المقومات والإمكانات؛ وقد نكرت (نفس)؛ للعموم والشمول لكل نفس حية، ولو علم الإنسان رزقه مستقبلا لأصابه اليأس والتمرد والإحباط والكسل؛ لكنه يعيش دوما على أمل في الزيادة؛ فلا يقصر في السعي والاجتهاد وإعمار الأرض.

---

[1] – سورة آل عمران، الآيتان (٥، ٦).

د- (عِلم النفس بمكان موتها وميعاده) فلا يمكن لأي نفس معرفة هذا؛ لذا جاء التأكيد بالنفي المطلق عن النفس أن تعلم بالمكان الذي سوف تموت فيه؛ ولما كان الإنسان لا يعلم بمكان موته؛ كان جهله بموعد موته من باب أولى، ولو علم الإنسان بميعاد ساعته؛ لاختلفت كافة أقداره؛ ولَسيطر اليأس والاكتئاب على شعوره، وما سعى في الحياة وعمَّرَها، ومضى ينتظر ساعة وفاته منذ إدراكه لمعنى الموت؛ وهذا من رحمة الله علينا قبل أن يدل هذا الانفراد على عظيم قدرته وإحاطة علمه بكل ما هو آتٍ مستقبلا.

وإن النفي المطلق عن النفس علمها بمقدار رزقها أو بمكان موتها لا يدخل في سياقه النفي عن الله؛ لذا أعقب هذا النفي المطلق بالعلم المؤكد (إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُ) أي: عليم بجميعها، خبير بأدق تفاصيلها وأسبابها؛ وهذ هو قمة الإعجاز القرآني الذي يتميز بالدقة في التعبير عن المعنى المراد بالصياغة المناسبة؛ فلا يصيبه الاستدراك ولا التشكيك على امتداد الأزمان.

٢- ومن الأمور التي اعتنى القرآن بالتأكيد على علم الله وإحاطته به هو (السر)، والسر قسمان: الأول: ما يكون العلم به محصورا بين اثنين أو أكثر بشرط الإمساك عليه وعدم إفشائه؛ وهذا الشرط هو الفيصل بين السر والنجوى، ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ**﴾[١] فعلى الرغم من أن النجوى لا تكون إلا بالصوت المهموس كما هو الحاصل في السر؛ لكن النجوى تكون لغاية، ويغلب عليها الكذب والافتراء؛ لذا قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾[٢]؛ حيث إن غالبا ما

---

[١] - سورة التوبة، الآية(٧٨).

[٢] - سورة المجادلة ، الآية (١٠).

يهمس الكذوب بصوته بخلاف من يتحدث بلسان الحق، إلا ما استدعى مقام النجوى المشروعة خفوت الصوت لمخافة– ولا يخاف إلا من الله–؛ ولما كانت النجوى من الأصوات الخافتة التي تقال على هيئة السر، فقد اعتنى القرآن بإيضاح مدى قدرة الله على العلم بها والإحاطة بكل ما فيها، والمحاسبة عليها؛ لتحذير أولى النفوس الضعيفة باطلاع الله على كل ما يتناجون به؛ فيكون الإنسان حريصا على عدم التحدث إلا بما يرضاه الله، ويحسن القول والنية، ويحبس معتقده الظالم في باطنه؛ فيحمي نفسه وغيره من شروره؛ قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[1]، فقد أتى القرآن بالصورة الدقيقة التي توضح مدى إحاطة الله بالنجوى؛ وقد بناها على أسلوب الحصر(النفي وإلا)؛ للتأكيد على أن الله–جل في علاه– أحد المتناجِين مهما كثر عددهم وتخافتت أصواتهم وتوارى جمعهم (**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**)؛ وقد بدأ القرآن العدد بالثلاثة؛ وزاد عليه؛ للإيحاء بأن غالبية النجوى شر، وغايتها النشر وليس الكتمان؛ حيث إن غاية المتناجي الكذوب نشر فتنته على أوسع نطاق دون أن يُتعرف عليه؛ وقد تكون النجوى بين اثنين، كما أشارت الآية، وهذا قليل جدا؛ لأن القلة ليست هدف المتناجي.

---

[1] – سورة المجادلة ، الآيات (٧، ٨، ٩).

أما (السر) فيكون بين اثنين –غالبا– بشرط الإمساك عليه وعدم إفشائه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]، فقد أوضحت الآية أن الله مطلع على السر مهما كان موضوعه ومكان حدوثه؛ وقد جاءت الآية بالتأكيد الواقعي؛ بإخبار العليم الخبير نبيه–صلى الله عليه وسلم– بأدق الأقوال وأخفاها عن طريق الوحي؛ سواء ما أسره النبي –صلى الله عليه وسلم– لزوجته، أو بما أنبأت به؛ وإن قوله تعالى: (وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ)، فيه إيحاء إلى أن الغاية من إخبار النبي هي التأديب قبل التأكيد على أن الله مطلع على كل الأسرار؛ وإلا أخبر الله نبيه بكل ما أنبأت به زوجته غيره–– صلى الله عليه وسلم–.

– والقسم الثاني من(السر): هو ما يكتمه الإنسان في نفسه، قال تعالى: ﴿... فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[2]، وقد أكد القرآن على إحاطة الله بهذا النوع إحاطة تامة بحدث واقعي–أيضا–؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3]؛ فلقد عبر القرآن باللفظ المستعار (يثني) من ثني الكتاب أي طيه؛ دلالة على مدى حرص هؤلاء المنافقين على إخفاء كل ما قد يوحي بالكفر الذي يضمرونه في قلوبهم؛ ظنًا منهم بأن الله لن يعلمه، وقد تمادوا في جهلهم بأنهم لا يخلعون ثيابهم؛ أملا في تكثيف

---

[1] – سورة التحريم ، الآية (٣).

[2] – سورة المائدة، من الآية (٥٢).

[3] – سورة هود، الآية (٥).

الحجب على قلوبهم؛ لئلا يراها خالقها[١]، ولكن يخبر الخالق–جل في علاه– نبيه– صلى الله عليه وسلم– بكل أحوالهم بما يسرون وما يعلنون منها؛ فقد كشف الله لنبيه عما في قلوب المنافقين دون أن يطلعوا عليه أحدا، وهذا الموقف يؤكد على أنه–جل في علاه–عليم بكل ما في الصدور؛ وجمعت صدور؛ للعموم والشمول.

– وقد أوضح القرآن وجود ما هو أخفى من السر، وأكد على علم الله به– أيضا–؛ مما يميز علم الله عن علم الإنسان حتى بمكنونات نفسه وخفاياها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢] أي: أكثر خفاء من السر؛ وحبْسُ السر في النفس هو أخفى أنواع الأسرار، ولعل الأخفى منه هو مجمل المشاعر الإنسانية؛ فإن السر معلوم بيانه لصاحبه ويمكنه أن يحبسه أو يُعلن عنه، بخلاف المشاعر، فهي تُحس ولا تُدرك، وتَمْلِك ولا تُمْلك حتى أنها قد تمرض صاحبها لعدم القدرة على معرفة أسبابها وعلاجها. وقد يكون المراد بما هو أخفى من السر ما ينتاب الإنسان من شعور غريب وأفكار غير منطقية لا يمكنه تفسير أسبابها ومعرفة تفاصيلها (العقل الباطن أو اللاوعي) التي منها السلوكيات الوسواسية التي لا يعي الإنسان حقيقتها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٣]، ووسوس إليه، أي حدثه بما هو خفي ومختلط غير مبَيَّن[٤]، ويحتاج الإنسان إلى كثير من الوقت للتفكير والتحليل النفسي حتى يقف على حقيقة بيانه والمقصد منه، لذا يعتمد

---

١ – لقد ذهب المفسرون لهذه الآية بأنها تعني أن الله يعلم ما في ضامر الإنسان مهما كان محجوبا، وهذا التفسير لا يليق بعمق التعبير القرآني ؛ لذا استنتجت هذا الموقف للمنافقين الذين لم يفضحهم النبي –صلى الله عليه وسلم– والله أعلم.

٢ – سورة طه، الآية (٧).

٣ – سورة (ق)، الآية (١٦).

٤– معجم اللغة العربية المعاصرة – الباب (الواو)– الجذر (و س و س).

الشيطان على الوسوسة للإنسان بما لا خير فيه، حتى يخلق شعورا بالاضطراب النفسي وعدم الاستقرار ليوهمه بأن الإقبال على هذا الفعل المشين سيخلصه من هذه المشاعر المرهقة له؛ لأن نفس الإنسان لو أدركت حقيقة هذا الفعل وأحاطت بكل تفاصيله وآثاره المترتبة على فعله؛ ما أقبلت عليه؛ لذا ينتاب الأنفس التي تداوم على الأفعال المشينة الشعور بالقلق والاضطراب دوما؛ وتسعى للتخلص منه بشتى الأفعال المزينة بالمعصية والشهوة، وهذا بالعكس مع الأنفس الخيرة التي ترى الأفعال على حقيقتها، ومن ثم يمكن القول بأن ما هو أخفى من السر ذلك الذي لا تدركه نفسك عن نفسك من أفكار ومشاعر خفية، وإن علم الله بها لَيفوق الإعجاز ويفارق المألوف، لكن لا يتعارض مع المنطق؛ لأنه تعالى هو الخالق لهذه الصدور، العالم بأدق تفاصيلها وشتى أحوالها وأسباب تحولها؛ بل المصمم لخفاياها وطبيعة مشاعرها؛ قال تعالى: ﴿**وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ*أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾[1]، فجاء التأكيد باستفهام مجازي يحمل المخاطب على الإذعان والإقرار بأن الخالق للشيء هو الأكثر دراية به والأعلم بأسراره، لاسيما أنه–جل في علاه–هو اللطيف الخبير الذي يحيط علمه بأدق الأشياء وأخفاها، وبشتى أحوالها وماهيتها؛ وعُرّفت الصفتان (**ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**)؛ للتخصيص والانفراد؛ فلا يطلع على كل ما في الصدور عيانا بيانا إلا هو – جل جلاله–.

وفي نهاية الحديث عن أبعاد علم الله وإحاطته، يكفي قوله تعالى(**... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾[2]؛ لندرك أنه لا يمكن لإنسان مهما أوتي من علم أن يحيط بأبعاد علم الله ويحكم عليه؛ لأن الإنسان خلق على كيفية محدودة القدرات، ومنح من العلم ما

---

[1] – سورة الملك، الآيتان (١٣، ١٤).

[2] – سورة الإسراء، من الآية (٨٥).

لا يعينه على استدراك ذلك؛ فقد خُلق ضعيفا ليس في الجسم فحسب، بل في الإدراك وكافة الإمكانات؛ فكيف لهذا أن يحكم على من خَلَق العلم والإدراك والملكوت والإنسان؛ فإن قدرة الله غير مقيدة بقيود، وإن علمه–جل في علاه– مطلق بلا حدود؛ لذا جاء الحقل الدلالي لمادة(علم) من الحقول الأكثر ورودا في القرآن الكريم، وهي أكثر الصفات إسنادا إلى لله–جل في علاه–، وقد تعددت أبنيتها، وتنوعت صيغها، وقد غلب إتيانها على الأقوى دلالةً من حيث الخبرة وقوة التمكن، منها: (صيغ المبالغة، وأفعل التفضيل، واسم الفاعل، والمصدر، والفعل المضارع)؛ حيث جميعها تتسابق في سعة الكم والكيف والاستدامة، وإن صيغة المبالغة(عليم) وردت وحدها أكثر من (مائة وأربعين مرة) في الدلالة عن تمكن علم الله لاسيما بما في الصدور؛ وقد اقتصر القرآن الكريم استعمال صيغة المبالغة(علّام)في التأكيد على إحاطة علم الله بالغيب؛ ويفسر ذلك أن العلم بما في الصدور والغيوب لفيهما من الإعجاز للعقل والإدراك، وطالما ينتابهما التشكيك والظنون؛ فيستعمل القرآن صيغ المبالغة في التأكيد على إحاطة علم الله بما هو غير ملموس أو مشهود للحواس؛ كاستعمال صيغة (عليم) للتأكيد على إحاطة علم الله بما في الصدور (...**إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾ [1]، وقصر استعمال صيغة(علّام) في التأكيد على تمكن علم الله من الغيب، قال تعالى : ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُـوبِ**"[2]؛ وفي هذا إيضاح للتدقيق القرآني في استعماله الأبنية الصرفية حسب مضمون السياق وما يلزمه من أبعاد الدلالة اللفظية؛ بما تميّز صفات الخالق وقدراته عمن سواه؛ يؤكد هذا استعمال القرآن لصيغة (أفعل التفضيل) ما تزيد عن خمسين مرة في الدلالة على تميز علم الله عما يعلمه المخاطب ويحيط به؛ تأكيدا على

---

[1] – سورة الملك، من الآية(١٣).

[2] – سورة التوبة ، الآية (٧٨).

أن علم الله ليس بالكيفية التي يعلمها خلقه ولو كان العلم بأنفسهم التي بين جنبيهم، قال تعالى: ﴿...يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿...أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، باستفهام مجازي يدفع الإنسان باعتبار الظاهر من تدبير أمره للإقرار والاعتراف بأن الله أعلم منه بنفسه.

وقد جاء التعبير عن مدى علم الله بالشيء مجموعا على صيغة (اسم الفاعل)، قال تعالى: ﴿...وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾[3]؛ وهذا كله يبرز مدى تمكن علم الله من كل شيء تمكنًا يجلي مدى علمه وطلاقة قدرته؛ ويؤكد على أنه–جل في علاه– ليس كمثله شيء في أي صفة إلا في اسمها وحسب.

---

[1] – سورة آل عمران، من الآية (١٦٧).

[2] – سورة العنكبوت، من الآية (١٠).

[3] – سورة الأنبياء، من الآية (٨١).

الخاتمــة

وبعد مصاحبة آيات الذكر الحكيم المعبرة عن أبعاد قدرة العلي العظيم؛ يمكنني أن أجني منها الثمار التالية:

١ – إن قدرة الله هي قدرة أزلية لا بداية لها، وأبدية لا نهاية لها، لا مقيد لإرادتها، ولا حدود لإمكانياتها، ولكن الله قد خلق كل شيء يؤكد للمخاطَب إعجازها حتى في نفسه التي لا يحيط إلا بالقليل من أسرارها.

٢– إن القرآن الكريم أكبر بكثير من أن يحيط الإنسان بتأويله، فهو يعطي لكل مريديه من شتى التخصصات على مر العصور وامتداد البيئات دون أن ينفد عطاؤه وتنتهي أسراره، وإن إحاطة البشر بتأويله؛ فهذا يعني نزوله من إعجاز الرحمن إلى دنيا العقول البشرية والإتيان بمثله؛ ولكنه جاء ليرفعها ويمدها بما هو صالح للارتقاء بشتى علومها، وبما يقوِّم من معتقداتها وكافة أمور حياتها على امتداد عصورها المتطورة، طور بعد طور.

٣– تتضح جماليات القرآن الكريم في تكامل نصوصه وإحاطتها لكل ما يهمّ المخاطَب؛ حيث تُفسر بعضها بعضا، ويُستدل بها على صحتها، ويُردُّ بها عليها؛ وهذا الجمال الفريد ليس لغيره؛ فما بحثتُ عن شيء إلا أجاب القرآن عليّ بأجوبة تتسابق جميعها في الرد المبين، والوصف المحيط الدقيق.

٤– إن البحث في جماليات التعبير القرآني لمن أصعب الأمور وأمتعها على الإطلاق؛ للعمق الدلالي الذي لا ينتهي إيحاؤه بألفاظ جزلة، وتراكيب موجزة، كلها تتميز بالدقة المتناهية؛ والإفاضة غير المتناهية؛ مما لا تنفد جمالياتها؛ لذا يعجز العقل البشري أمام الكثير منها، بل يعجز عن الإحاطة بأبعاد دلالة ما استوضح معانيها.

٥- إن التصوير القرآني لا يمكن لبلاغيّ أن يَحكم عليه؛ فمنه يَتعلم جمال التصوير وجلال الصورة ومراعاتها للدقة والإحاطة بكافة التفاصيل المشتركة بين طرفي التشبيه؛ حتى يأتي وجه الشبه جامعا مانعا مثيرا موضحا بعدما قرّب لحواس المخاطَب ما كان بعيدا عن ذهنه.

٦- إن النظم القرآني لَيتميز بالسلاسة التي لا مثيل لها؛ يتجلى هذا حين التغني بكلماته التي يخلق اجتماعها لحنا موسيقيا عذبا لا يمكن لأي نظم أن يصل إلى هذا النغم العبقري الفريد، له خواص صوتية ظاهرة، لا يمكن الإمساك بها والإتيان بمثلها؛ لعدم القدرة على الإحاطة بأسرار جرسها، التي منها هذا التناسق الفذ الكائن بين أصوات حروفه، لاسيما خواتيم آياته التي تأتي جميعها على نمط ليس له مثيل؛ يجمع بين براعة الدلالة، والانسجام بين مخارج حروفها وحركاتها على الرغم من تنوعها بين شتى حروف الهجاء، وإذا أطال في تكرار حرف موحد فلا يكون إلا في ذي الجرس المستحسن؛ مما يراعي طبيعة الأذن البشرية، وعوامل تأثير الأصوات فيها، لاسيما تأثّرها بالصوت الممدود الذي يُختتم به غالبية الآيات القرآنية؛ وهذا بلا شك يؤكد على إعجاز القرآن واستحالة الإتيان بمثله في أي من سماته.

٧- التوصية بأن يكون القرآن أولى اهتماماتنا، لاسيما في الحياة البحثية بشتى علومها وتخصصاتها؛ وحبذا البحث اذا اجتمعت كافة التخصصات الشرعية والتطبيقية بقيادة خبيري اللغة العربية في دراسته، والنهل من أسراره ، التي بلا شك ستقودنا لاستخلاص ما يعيننا على التقدم في كافة العلوم والمجالات والاستكشافات ومن قبلهم المعاملات، فالتخصص الواحد حين البحث في القرآن الكريم؛ يعني افتقاده للكثير من أسراره، ولا يستطيع البحث فيه إلا المتمكن من لغته.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً– القـــرآن الـكـريـم.

ثانيا– الكتاب المقدس(العهد الجديد).

ثالثا– المصادر والمراجع:–

١– تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه– الشيخ/ محمد علي طه الدرة– دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١ ، ٢٠٠٩ .

٢– تفسير النسفي(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) – لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود(النسفي)المتوفى سنة ٧٠١هـ – تحقيق/ السيد زكريا– مكتبة نزار مصطفى الباز– د، ت.

٣– ديوان:(طُرفة بن العبد) – شرح وتقديم/ مهدي محمد ناصر الدين– دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان– ط٣– ٢٠٠٢.

٤– صحيح مسلم– للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري– تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي– دار الحديث بالقاهرة– ط١٤١٢،١هـ– ١٩٩١م.

٥– الغيب– للشيخ/ محمد متولي الشعراوي – مطابع أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٨م.

رابعا– الدوريـات (الصحف والمجلات) والمواقع الإلكترونية:

١– جريد البيان الإلكترونية– مقال بعنوان: (لولا الجبال لمالت الأرض وانقلبت وانعدمت الحياة على سطحها)– ترجمة وإعداد/ أحمد سلطان– المنشور بتاريخ ١٩ أكتوبر ٢٠٠٦.

٢– موقع (الانتباهة أون لاين)– مقال بعنوان: (الإعجاز العلمي في خلق الإبل)– بقلم/ مجدي الحسين– المنشور بتاريخ ١١ يناير ٢٠٠٩م.

٣– صحيفة دنيا الوطن الإلكترونية– مقال بعنوان: (الذبابة بلا معدة) بقلم/ عبدالله عيسى– المنشور بتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠١٢م.

٤-موقع (ملتقى أهل التفسير) الإلكتروني- مقال بعنوان: (تفسير قوله تعالى: "وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً") - بقلم الأستاذ الدكتور/عبدالرحيم الشريف، (أستاذ التفسير وعلوم القرآن، جامعة الزرقاء/الأردن)- المنشور بتاريخ٣٠ نوفمبر ٢٠١٤م.

٥- موقع (ناسا بالعربي) الإلكتروني- مقال بعنوان: (معرفة سرعة الشمس والمسافة إلى مركز المجرة)- بقلم / سارة الراوي- نُشر بتاريخ ٢٣مارس ٢٠١٧م.

٦- موقع (تسعة) الإلكتروني- مقال بعنوان: (كيف تكوّن الذرة كل الأجسام المادية ومتى اكتشفها العلماء)- بقلم/ محمد جادالله- المنشور بتاريخ ١٥فبراير ٢٠١٩م.

٧- موقع (الإعجاز في القرآن والسنة)الإلكتروني- مقال بعنوان:(آية اختلاف الليل والنهار في ضوء علوم الفضاء)- بقلم/ د. نجاة محمد رشيد رؤوف العبيدي، بجامعة بغداد قسم الفلك والفضاء- المنشور بتاريخ ١ديسمبر ٢٠١٩.

٨- موقع (إعجاز القرآن والسنة)- مقال بعنوان: (الإعجاز الإلهي في خلق الإبل)-بقلم الأستاذ/ عبد القادر شحرور، المنشور بتاريخ ٢١ديسمبر ٢٠١٩م.

٩- موقع (موضوع) الإلكتروني- مقال بعنوان: (ما هي المياه الجوفية)- بقلم/حنين حجاب- المنشور بتاريخ٣مارس ٢٠٢٠م.

١٠- موقع (مرسال) الإلكتروني- مقال بعنوان: (ما هي فوائد الرياح وأنواعها)- بقلم/ سحر محمد- المنشور بتاريخ ١٧فبراير ٢٠٢١.

١١- موقع بوابة أخبار اليوم - مقال بعنوان:(ذباب مايو يعيش يومًا واحدًا..)، بقلم/ هناء حمدي، المنشور بتاريخ ٢٩ سبتمبر ٢٠٢١م .

١٢- موقع (محتويات) الإلكتروني- مقال بعنوان:(نبات يضرب به المثل في حجمه الصغير)- بقلم/ بشرى ديوب، المنشور بتاريخ١٦يناير ٢٠٢٢م .

١٣- شبكية(ويكيبيديا)، مقال مترجم بعنوان: (تشريح العين)- منقول عن: جي، كراوس ويليام بوكا- علم الأنسجة لطلاب الطب، راتون، فلوريدا، الناشرون العالميون، د.ت.

خامسا- المعاجم :

١- معجم اللغة العربية المعاصرة - د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، وآخرون- عالم الكتب، القاهرة -الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م.